اقرأ

كمال بسيوني

الثريّا

دار المعارف بمصر

الثّريا

كمال بسيوني

الثريّا

اقرأ ١٨٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٨٣ – مارس سنة ١٩٥٨

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

الإهداء

إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين

أستاذى الجليل :

أنت علمتنى وألهمتنى وأوحيت إلىّ .

وأنت أحببتنى وآثرتنى وعطفت علىّ .

فكنتُ لك تلميذاً ، كما كنتُ لك ابناً .

ولكنى أشد تلاميذك تأثراً بك ، وأقرب أبنائك شبهاً لك

فهل تأذن لى فى أن أهدى إليك هذا الكتاب أداء لبعض مالك

علىّ من فضل ، وما لك عندى من يد ؟

كمال بسيونى

١

لا تقلْ إنها جميلة رائعة الجمال ، ولكن قل إنها الجمال يحيا ويتحرك . ولا تقل إنها فاتنة بارعة الفتنة . ولكن قل إنها الفتنة تمشى على قدمين . فأنتَ إذا شهدتّها اليوم — حين أقبلتْ مع الغروب تطوف بالبيت — لم تستطع أن تفرق بين الجمال والجميل ، ولا بين الفتنة والفاتن ، وإنما اختلط عليك الأمر اختلاطاً ، ثم اقتنعت بأنك تشهد الجمال والفتنة يطوفان بالبيت ، فيختلبان قلبك ، ويستلبان لبك ، وينسيانك نفسك وما يحيط بك من الناس والأشياء .

قال ابن أبى عتيق يداعب صديقه عمر بن أبى ربيعة حين سمع منه هذا الكلام : أما تسأم هذا اللهو الذى تأخذ فيه منذ أنْ تصبح إلى أن تمسى ، وتأخذ فيه منذ أن تمسى إلى أن يتقدم الليل ؟ ومن يدرى ؟ فلعلك أن تأخذ فيه نائماً كما تأخذ فيه يقظان ، فأكبر الظن أن أحلامك — إذا أظلك النوم بجناحيه — ليستْ إلا لهواً وعبثاً ، كما تلهو وتعبث حين تجتمع لك قواك العاملة كلها

قال عمر : فإنى لا ألهو ولا أعبث ، وإنما أحدثك عن فتاة رأيتُها اليوم فى المسجد الحرام . كان وجه النهار شاحباً ، وكانت الشمس قد أخذت تنحدر إلى مغربها مسرعة ، كأنما كانت تنهزم أمام هذا الليل الذى أقبل فى هدوء وجلال ، كأنه سيل من الظلمة الحالكة يغمر مكة وما يحيط بها من الجبال والآكام . وكنت أنا فى المسجد الحرام فى ذلك الحين ، فأنت تعلم أيها الصديق أن أحب ساعات الدهر إلىَّ هذه الساعة ، حين تنتهز النساء فرصة الليل ، فيخرجن للطواف ، هنالك أترصدهن ومنهن من تترصدنى ، وهنالك تبتدئ أحاديثنا الحلوة لتتم بعيداً عن البيت . كنتُ إذن فى المسجد الحرام حين آذنت الشمس بالمغيب ، وأخذت الظلمة تغزو الفضاء ، فما يروعنى إلا هذه الفتاة الأنيقة الرشيقة ذات الوجه النضر والقد المعتدل ، هذه التى أقبلتْ على البيت ساحرة باهرة تحيط بها هالة من الفتنة الفاتنة ، وعلى وجهها ابتسامة حلوة تغشى وجهها بغشاء من الجمال الرائع ليس إلى تصويره من سبيل . فلما رأيتها وقفت مسحوراً مبهوراً لا أعرف ماذا أصنع ولا أدرى كيف أقول ؟ وما أدرى أطال وقوفى على هذا النحو أم قصر ؟ ولكنى أعلم أن الفتاة قد ملكت علىَّ نفسى وقلبى ، واستأثرتْ

بعقلى ولبى ، فشغلتنى عن كل شىء وعن كل إنسان . ولقد أذكر أنى قد رأيتُ فتيات كثيرات ، فرضيتُ عنهن ، أو أعجبتُ بهن ، أو فتنت بجمالهن . ولكنى لم أشعر قط بهذا الشعور الذى شعرت به حين رأيتُ هذه الفتاة . فقد شعرتُ بأنى قد وجدتُ شيئاً كنتُ أفتقده ، وكنتُ فى أشد الحاجة إليه . أو قل إنى شعرتُ بأن سعادتى قد كملت ، وقد كانت ناقصة ، ونفسى قد اطمأنتْ ، وقد كانت قلقة . وقلبى قد استقر فى صدرى ، وقد كان ثائراً مضطرباً . هنالك أحسستُ فى قلبى حبًّا لهذه الفتاة لم أعرف كيف أصفه ولا كيف أسميه ؟ ولكنى كنتُ أجد من نفسى نزاعاً شديداً إلى أن أجلس إليها ، وأقول لها ، وأسمع منها . وقد أتمت الفتاةُ طوافها ، وخرجت من المسجد الحرام ، فلا أحس بنفسى إلا وأنا أسيرُ إلى جوارها وأسألها عن اسمها ، ولكنها لا تجيب . فأحدثها عما أحسه فى قلبى لها من حب ، ولكنها لا تسمع لى إلا بأذن معرضة ولا تلتفت إلىَّ إلا بوجه مشيح . فلما لم أجد سبيلا إلى كلامها قلتُ فى نفسى : اتبعْها ، فلعلك أن تعرف من هى ؟ ومن عسى أن تكون ؟ وقد تبعتها حتى رأيتها تدخل دار عبد الله بن الحارث ابن أمية الأصغر ، فعرفتُ أنها إحدى بناته ، فقد أعلم أن

له بنات أربعا ، كُنَّ منذ أعوام قصار يلعبن مع الصبيَّات أمام المسجد الحرام ، وقد أذكر أنهن على طفولتهن كنَّ مشرقات الوجوه ، باسمات الثغور ، ساحرات العيون ، وكن أسيلات الخدود ، جميلات القدود ، نحيلات الخصور . وكن عِذابَ الأصوات ، مِلاح الألفاظ ، فاتنات الأحاديث . وقد أذكر أيضاً أن أسماءهن : الثريا والرضيا وقريبة وأم عثمان .

قال ابن أبي عتيق : فقد كانت هذه الفتاة هي الثريا إذن ؟

قال عمر : نعم كانت هي الثريا أيها الصديق . وقد عدتُ إلى داري كئيباً محزوناً بعد أن دخلت الفتاةُ دارها ، وأغلقتْ الباب من ورائها . وما أريد أن أخفي عليك شيئاً أيها الصديق ، فقد نازعتني نفسي إلى دخول الدار ، وما أظن إلا أنني لو أرسلتُ نفسي على سجيتها لدخلت ، ولكني لا أجد إلى دخول الدار من سبيل ، وماذا أقول لأهل الدار ؟ وكيف أجيبهم إن سألوني ماذا أريد ؟ وماذا أصنع إذا أعلنتْ إليهم الفتاة أني قد تبعتها . وحاولتُ كلامها ، ولم أتركها حتى انتهتْ إلى الدار ؟ فلم يكن بد أيها الصديق من أن أعود أدراجي وأذهب إلى داري ، وأخلو إلى نفسي ، أو أخلو إلى هذه

الفتاة ، أو أخلو لأستمتع بهذا الجمال الذى رأيته ، وأتصل به ، وأفنى فيه . وقد خلوتُ إلى نفسى . فإذا أنا مازلت أسيراً لهذه الفتاة ، أراها حين أقبلتْ تطوف ، وأراها حين انتهتْ من الطواف وغادرت المسجد ، وأراها وأنا أسيرُ إلى جوارها وأكلمها فلا ترد علىَّ ، ثم أراها وهى تدخل دارها ، وتغلق الباب من ورائها، وتتركنى قائماً واجماً كئيباً محزوناً . نعم ظللتُ أسيراً لهذه الفتاة ، ووجدتُ فى هذا الأسر لذة قوية عنيفة ، وكم وددتُ لو أنى ظللتُ لها أسيراً ، أستمتع بلذة الأسر ، وأنعم بها ، ولا تصرفنى عنها صارفات الحياة .

قال ابن أبى عتيق : ولكن جاريتك الحسناء تدخل عليك مترفقة ، فتنبئك متلطفة : بأنى أستأذن عليك . فتصرفك عن هذه اللذة ، أو تصرف هذه اللذة عنك . فأنت إذن كارهٌ مقدمى ، ساخط على زيارتى ، لأنى قطعتُ عليك لذتك ، وقد كنتَ تريد أن تتصل ، وأن تمضى فيها إلى غير حد .

قال عمر : وكيف أكره مقدمك وأسخط على زيارتك ؟ وأنت أصدق الناس لى وداً فى السر والجهر ، وأحسن الناس عندى بلاء فى الشدة واللين . ومن يدرى ؟ فلعل القدر أن يكون قد ساقك إلىَّ الليلة ، لأفضى إليك بأمرى ، وأستعين

بك على هذا الحب الذى أعرف أوّلهُ ولا أعرف آخره ، ولا أدرى أسعيد أنا به أم شقى ؟

قال ابن أبى عتيق : فما رأيك فى أنك لا تعرف الحب ولا تفهمه ، وقد سمعتُ منك هذا الحديث الطويل العريض على أنه لون من ألوان المزاح ، وضرب من ضروب العبث .

قال عمر : برئتُ إليك من المزاح ، وبرئتُ إليك من العبث ، إنما أعرض عليك دخيلة نفسى ، ولو استطعتُ أن أخرج قلبى من بين جنبىَّ لتنظر فيه ، لما رأيت فى صفحة من صفحاته مزاحاً ولا عبثاً ، إنما هو الجد كل الجد ، والحب كل الحب لهذه الفتاة التى تسمى الثريا .

قال ابن أبى عتيق : ألم يتعبك هذا الحديث الذى لا ينقطع وهذا الهراء الذى لا ينقضى ؟ أتراك كنتَ مع إبليس قبل أن أقدم عليك ؟ فأكبر الظن أنه هو شيطانك الذى يطلق لسانك بهذا الهذيان .

قال عمر : ثم تزعم بعد ذلك أنى أمزح وألهو ، وأنت المغرق فى المزاح واللهو . فأنا قبل كل شىء لا ألغَى ولا أهذى ، وإنما أتحدث إليك بالجد كل الجد ، فأنا أحب الثريا حبّاً لا حد له . وأنا بعد ذلك لا عمل لى إلا هذا الحب . وهل

نستطيع أن نشارك فى الحياة العملية ، وقد استأثر بها بنو أمية من دوننا ؟ فلننصرف إلى الحب وما يستتبعه من لذة أو ألم ومن سعادة أو شقاء .

قال ابن أبى عتيق : ولكن الحب شىء ، وهذا العبث الذى تخوض فيه شىء آخر .

قال عمر : فإنى قلتُ لك : إنى أحب الثريا ، لا ألهو ولا أعبث وإنما أفضى إليك بذات نفسى ، ولا ألتوى عنك بما أجد فى أعماق الضمير .

قال ابن أبى عتيق : ولكنى لا أعرف عنك إلا اللهو والعبث .

قال عمر : فاعلم عنى منذ اليوم أنى أحب ، وأحب الثريا وأريد أن أصل إليها ، فأشرْ علىّ .

قال ابن أبى عتيق — بعد أن فكّر غير طويل — : فأنت تستطيع أن تصل إليها عن طريق زوج أبيها أم نوفل .

قال عمر — وقد كاد يطير من الفرح — نعم عن طريق أم نوفل .

٢

وكانت أم نوفل هذه فتاة حلوة رشيقة ، معتدلة القد ، خفيفة الحركة ، كثيرتها ، منطلقة اللسان ، عذبة اللفظ ، حرة فيه ، لا تكاد تصمتُ . ولا تكاد تتكلم إلا بأبعد الكلام عن الجد والحزم . وكان كل شيء فيها يعطى عنها صورة صادقة للفتاة النزقة اللعوب ، التى لا تفهم الحياة إلا على أنها فصل من فصول اللهو ، وضرب من ضروب العبث ، وفن من فنون المجون ، والتى تريد أن تلهو ما استطاعت إلى اللهو سبيلا ، وأن تأخذ من الفكاهة والدعابة بأعظم حظ يمكن أن تأخذ به فتاة . وقد رأى شباب قريش منها هذا كله ، ففتنوا بها أشد الفتنة ، واتخذوا اسمها رمزاً للشباب القوى والجمال الفتىّ والخفة المدهشة . ولعل غير واحد منهم فكر فى أن يتخذها له زوجاً ، ولكن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر يتقدم إليها بعد أن ماتت زوجه ، وتركت له بناته الأربع . وتصبح أم نوفل زوجاً لعبد الله ، تؤنس وحدته ، وتدبر بيته ، وتربى بناته ، وترزقه الولد أيضاً . ولكن عبد الله وهو رجل غنى نستطيع أن نقول :

إنه فاحش الثروة ، ينصرف إلى ثروته ، يدبرها ويثمرها ، وإلى حياته المالية يعكف عليها حتى تنسيه كل شيء . تنسيه زوجه فلا يلتفت إليها ولا يحفل بها ، وهو مع ذلك يحبها ، ويحب بناته ، ويريد لهن حياة سعيدة لا يشوبها شر ولا سوء . فهو يبيح لهن من أسباب النعيم شيئاً كثيراً . وقد أسكنهن داراً فخمة فى مكة ، وبنى لهن قصراً عظيما فى الطائف ، كُنَّ يَصِفْن فيه . وأطلق أيديهن فى المال يأخذن منه حاجتهن ، وفوق حاجتهن ، لأنه يريد أن يستمتعن بهذه الثروة الضخمة حقاً . وتعيش أم نوفل مع بنات زوجها عيشة الترف ، وتقضى الحياة فى لهو ونعيم ، وتقوم من بنات زوجها مقام الأم ، تحنو عليهن ، وتؤثرهن من المحبة والبر ، ومن المودة والعطف ، ومن الحنان والرفق ، بكل هذه الكنوز التى لا تفنى ، والتى تحتويها قلوب النساء . فإذا بلغن أشدهن قامت منهن مقام الصديق أيضاً ، فعبثت معهن ، ومزحت ، وبادلتهن أخف الألفاظ وأشدها إيغالا فى المجون ، وشاركتهن فى أحاديث أنفسهن ونجوى ضمائرهن . وتلقت أسرار لهوهن ، فنصحت لهن فيها وأعانتهن عليها . وهن يرون منها هذا كله فيبادلنها الود والحديث والثقة والأسرار . ويستعن بها على ما قد

تضيق به صدورهن من الخواطر والهموم ، وعلى ما تفيض به نفوسهن أحياناً من ألوان الغبطة والابتهاج . ولكن أم نوفل وإن انتهت إليها مقاليد الثراء ، واجتمعت لها أسباب النعيم ، لم تكن سعيدة ، فقد كانت تشعر بأن فى الحياة شيئاً آخر غير الطعام والشراب والنوم والزينة . وليست الحياة مقصورة على هذا الجزء الحيوانى الذى رفهته الحضارة بألوان الترف . كان لها فى الحياة مثل أعلى ، يخالف كل المخالفة ما هى فيه من طعام وشراب ونوم وعناية بالأعمال اليومية . فليست الحياة مقصورة على الجسم وما يتصل به من الغرائز ، وإنما هى تتناول القلب وما له من شعور وعاطفة . كانت تريد أن تحب ، وأن تجد من يحبها . ولم يتح لها هذا الحب ، لأن زوجها كان منصرفاً عنها إلى أعماله المادية ، ولأنه كان لا يستطيع أن يتصور الحب كما تتصوره . هذا هو مثلها الأعلى ، وهى تفكر دائماً فى مثلها الأعلى ، وتشعر دائماً بحاجتها إليه ، وبأنه لم يتح لها . وزوجها لا يحس منها هذا الشقاء ، ولو أحسه لما فهمه . وقد ظلت أم نوفل تشقى بهذا الشعور . وتنتظر الفرصة التى تتيح لها أن تلقى الفتى الذى تحبه ويحبها . وقد كانت مع ذلك تشعر شعوراً خفياً بأن هذه الفرصة لن تتاح لها إلا إذا أقبل موسم

الحج ، وامتلأت مكة بالطوائف المختلفة من الناس . هنالك يتاح لها أن تختلط بالشباب ، فتنظر إليهم وينظروا إليها ، وهنالك يمكن أن تتصل الأسباب بينها وبين الفتى الذى تتفق أهواؤه وأهواؤها ، وتلتقى نظرته للحياة ونظرتها . ويظهر أن أم نوفل كانت صادقة فى هذا الشعور . فقد أقبلت ذات موسم مع المساء إلى المسجد الحرام ، فرأت طوائف مختلفة ، وطبقات متباينة من الناس ، فأخذت تسعى بينهم ، وتنظر إليهم ، وتسمع لأحاديثهم، ولكن من هذا الفتى الوسيم القسيم ذو الوجه المشرق والثغر الباسم والنفس الوديعة والحاشية الرقيقة، هذا الذى قد أحاطت به النساء من كل وجه ، وأخذنه من كل نحو . وهو قائم باسم يطوف بالبيت فى نشاط وخفة ، وفى تأنق وظرف . يكلم هذه ويبسم لتلك ، ويداعب كل من يراها على كل حال ؟ إنه عمر بن أبى ربيعة ، وإن النساء لمفتونات به ، متهالكات عليه ، وإنهن ليتحدثن عن جماله وخفته وعن لطفه وظرفه ، منهن من تجهر له بذلك فيبتهج ، ومنهن من تسر ذلك وتذكر لصاحبتها أنها تشتهيه ، وتود لو استمتعت بلذات الحياة معه ، ولكنها تخشى أن يفضحها فى شعره . فكثيراً ما وصف الفتى خلواته مع النساء ، وسقط هذا الوصف

فى أيدى المغنين ، فإذا هو مصدر للهو والطرب لهذه الأروستقراطية المترفة من أبناء قريش والأنصار . فتنظر أم نوفل إلى هذا كله . وتحس من نفسها ميلا إلى هذا الفتى وكلفاً به ، وإذا هى تنظر فترى نفسها تدنو منه وتنظر إليه نظرات فيها الرغبة ، وفيها الإعجاب ، وفيها الحب أيضاً . فما هى إلا أن يحدثها الفتى ، فتتلطف له وتتحدث إليه فى دعابة ورفق. ولكن نساء أخر قد أقبلن فدنون من الفتى ونظرن إليه ، فحدثهن الفتى أيضاً . ولذيذ جداً منظر الفتى بين هؤلاء النساء ، فكل واحدة منهن تريد أن تخلو إليه ، وكل واحدة منهن تتحرق شوقاً إلى هذه الخلوة ، وكل واحدة منهن تسعى جاهدة إلى أن تصرف الأخريات ليتم لها ما تريد ، والفتى بينهن يخدع هذه ليغازل تلك ، ويخدع تلك ليغازل هذه . وكل واحدة منهن تشعر مرة وتنخدع أخرى ولكنها لا تبرح مكانها ، وكأنها تستكثر على نفسها أن تترك الفتى لغيرها وتولى منهزمة . حتى إذا شعرت أم نوفل بأن الساعة متأخرة انصرفت . ولكنها تنصرف الليلة لتعود مع المساء إذا كان الغد . ويكثر اختلافها إلى المسجد وتوددها للفتى وترددها عليه ، وإذا هى تحبه وإذا هو يحبها ، وإذا هما سعيدان بهذا

الحب ، ولكن سعادتهما مختلفة ، فأما الفتى فسعيد على نحو ما يسعد الشبان العابثون الذين لا يفكرون فى الغد ولا يحسبون للمستقبل حساباً ، وإنما يندفعون فى لذتهم وسعادتهم إلى غير حد ، وهو مغتبط بهذا الحب ؛ لأنه قد أضاف صاحبة جديدة إلى صاحباته اللائى يزدن كل يوم ، ولعله ألا يعرف لهن عدداً . وأما هى فسعيدة ولكن مع شىء غير قليل من الحزن والإشفاق ، فهى سعيدة لأنها تحب الفتى ، ولأنها قد وجدت ما يزيل هذا الشقاء الذى كانت تشعر به منذ حين ، ولأنها ترى نفسها تتفتح للحب واللذة كما تتفتح الزهرة للضوء والندى . ولكنها مع ذلك محزونة مشفقة ؛ لأنها تعرف الفتى وسوء سيرته مع الفتيات ، ولأنها لا تعرف ماذا يضمر المستقبل لحبهما ، وعن أى نكبة سيتكشف لهما الغد . على أن هذا الحزن وهذا الإشفاق يزيدان فى حرصها على السعادة والغبطة ، ويحملانها على أن تتزيد منهما ما استطاعت ، فهى تسبق إلى كل وقت ملائم ، وتنتهز كل فرصة سانحة ، لتأخذ بحظها المقدور لها مع صاحبها من اللذة والمتاع . ولكنها تخلو إليه ذات يوم فيتحدثان فى الحب وآثاره ، وفيما يجد كل منهما من الوحشة لفراق صاحبه ، فإذا هى تحس بأن حب صاحبها قد تغير

وأصابه شيء من الفتور ، فليس هو ذلك الفتى المفتون المدله الذى كانت تراه قبل ذلك ، وإنما هو فتى آخر هادئ مطمئن ، يتكلف الافتتان والهيام . أما هى فبعيد حبها كل البعد عن الهدوء والفتور ، وإنما هو يتلظى ويضطرم ، وهى تجتهد الاجتهاد كله فى تخفيفه وتلطيفه . وقد طلبت إلى صاحبها أن يلقاها مع المساء ، فيعتذر لأنه لا يستطيع . فهو مضطر إلى لقاء صديقه ابن أبى عتيق فى أمر لا يمكن إرجاؤه . ثم ينصرف الفتى وإنها لتألم أشد الألم لما رأت من تغيره وفتور حبه . ولكن الفتى ينصرف عنها انصرافاً تاماً إلى غيرها من الفاتنات الحسان ، فهو يتنقل بينهن كما تتنقل النحلة بين الألوان المختلفة من الزهر . وهى تتأذى بهذا الهيام فى ذات نفسها ، ولكنها تعتذر مع ذلك عن الفتى ، فالفتى شاب قوى الشباب ، غنى موفور الغنى ، جميل بارع الجمال . والفتى بعد هذا كله لا يعمل شيئاً ، أو لا يكاد يعمل شيئاً ، وما يصدر عنه من الحركة والنشاط ليس بذى غناء ، وليس أفسد للشباب الغنى الجميل من هذا الفراغ الذى يملأ حياته ، إن صح أن يملأ الفراغ شيئاً . والفتى آخر الأمر قوى الحس حاد الشعور لا يستطيع أن يقاوم الفتيات الجميلات حين يخلبنه

باللفظ واللحظ ، ويسعد نه بالقرب والوصل . وقد طال انصراف الفتى عنها حتى استيأست منه ، ولكن ماذا ؟ هذه جارية حسناء من جواريه تقبل عليها ذات يوم مع الضحى ، فتخبرها بأن سيدها يرغب فى لقائها فى المسجد الحرام إذا كان المساء . ويقع منها هذا النبأ موقع الدهش الحائر ، فماذا حدث من الأحداث؟ وماذا جد من الأمور ؟ وما سؤاله عنها بعد نسيانه لها ؟ وما رغبته فى لقائها بعد هذا الإغضاء الطويل ؟ أيمكن أن يكون الفتى قد حن لها ، أو عاوده الشوق إليها ؟ . وتذهب إليه فترى وما أجمل ما ترى ، وتسمع وما أعذب ما تسمع ، ترى افتتاناً وهياماً ، وتسمع ثناء وإطراء . وكل هذا يملأ قلبها راحة وأمناً وهدوءاً ، ويملأ نفسها طمأنينة ودعة واستقرارا . ولكنها لا تكاد تنصرف عن الفتى ، وتخلو إلى نفسها ، حتى تفكر فيما رأت وفيما سمعت ، وحتى تحاول أن تتبين أصله وترده إلى علته وتجد له تفسيراً أو تأويلا .

٣

وقد فكرت أم نوفل ، وما كانت فى حاجة إلى التفكير ، وقد جاء ذكر الثريا عرضاً فى الحديث بينها وبين عمر ، فإذا هو يعلن إليها أنه قد رآها بالأمس حين خرجت للطواف ، وأنه لم يعرفها حين رآها ، فتبعها حتى انتهت إلى الدار ، فعرف أنها الثريا . وتتبين أم نوفل من عمر عاطفة قوية نحو الثريا ، وتحس أن علاقته الجديدة بها ليست إلا وسيلة فى حقيقة الأمر إلى هذه الفتاة الجميلة الفاتنة ، ذات الوجه النضر والجسم الغض والصوت العذب . وآية ذلك أنه قد طلب إليها أن تحضر معها الثريا إذا كان المساء من الغد ، وتلقاه فى المسجد الحرام ، وهو سينتظرهما معاً إلى جوار البيت . وليس من شك فى أن هذا كله قد وقع منها موقعاً أليماً ، ولكنها كانت تحب الفتى وتحرص على سعادته ، فلما أحست حبه للثريا لم ترد أن تجاهد ولا أن تثقل عليه ، وإنما أرادت أن تترك له الذكرى جميلة نضرة ، لأنها تحبه حقًّا . ثم هى لا تكتفى بذلك ، وإنما تمهد سبيل اللقاء بين الفتى والفتاة ، وتضحى بنفسها فى سبيل

هذا الفتى الذى تحبه ، والذى يسعدها ويملأ قلبها غبطة أن تراه سعيداً مغتبطاً ولو مع غيرها من الفتيات . وليس من شك فى أن كلا منهما لم ينم من ليلته هذه ، فأما أم نوفل فقد كانت تفكر فى الفتى كيف أحبها ، ثم انصرف عنها ، ثم عاد إليها ليتخذها وسيلة للغرض الذى يقصد إليه ، وطريقاً للغاية التى يريد أن يبلغها ، وهى مع ذلك لا تجزع ولا تشكو ، وإنما ترتسم على ثغرها ابتسامة حلوة مُرّة، تصور الرضا أكثر مما تصور الغيظ . ثم كانت تفكر فى نفسها كيف أحبت الفتى وسعدت بحبه ، ثم أخذت هذه السعادة تكدر شيئاً فشيئاً ، ويمازجها البؤس قليلا قليلا، ثم أخذت تضؤل وتهون وتمّحى حتى صارت حياتها كلها ألماً وشقاء . ثم يقدر لها بعد ذلك أن ترى السعادة ، ولكن كما يرى الظمآن السراب ، يحسبه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد عنده الحزن واليأس وخيبة الأمل وكذب الرجاء . ثم كانت تفكر فى الثريا وما عسى أن تذوق مع الفتى من لذة الحياة ونعيمها ؟ وهل ذاقت هى من لذة الحياة ونعيمها إلا هذه الثمرات الحلوة المرة التى جنتها مع الفتى فى أيامها السالفة ؟ وكانت تتمثل الثريا وهى تقبل على عمر ، فيلقاها بوجهه المشرق وثغره الباسم وينظر إليها بعينيه

القويتين الحادتين ، ويتحدث إليها بصوته العذب الممتلىء الذى تشيع فيه القوة وتفيض منه الحرارة ، والذى يحمل إلى قلبها ألفاظه الحلوة الرائقة الشائقة ، وإذا هى تفهم منه مالم تكن تفهم ، وتعلم منه ما لم تكن تعلم، وتحس منه مالم تكن تحس، وإذا هو يثير فى نفسها عواطف لم تكن تعرفها ولم يكن لها بها عهد . وإذا هى تسرع إلى هاتين الذراعين اللتين يمدهما لها الفتى غير مُحْتفلة بالعاقبة ولا مقدرة لما عسى أن يكون . كانت أم نوفل تفكر فى هذا كله . ولكن عمر كان يفكر فى شىء واحد ، كان يفكر فى الثريا ، ويقدر ما عسى أن يظفر به من السعادة حين يتاح له أن يلقاها ويسمع منها ويتحدث إليها ، وكان يستقبل ساعات الليل والنهار متهيئاً للنعيم ، متعجلا حركة الفلك مشفقاً مع ذلك من طارئ يطرأ أو حادث يلم .

ويشرق النهار ويرتفع الضحى وتقبل أم نوفل على الثريا فتدعوها إلى الطواف معها إذا كان المساء . ولكن الثريا تأبى عليها ذلك ، وتعلن إليها أنها ضيقة الصدر بالخروج إلى المسجد الحرام . فإذا سألتها أم نوفل عن ذلك ، أخبرتها بأنها كانت قد خرجت للطواف أول من أمس ، فلقيها إلى جوار البيت

هذا الفتى الفاسق المسمى عمر بن أبي ربيعة ، فانتظرها حتى إذا انتهت من طوافها وخرجت ، خرج وراءها ، وأخذ يتحدث إليها أحاديثه الغاوية التي يتحدث بها إلى النساء ، والتي كانت قد سمعت عنها ولكنها لم تسمعها من قبل . وأم نوفل تضحك لهذا الحديث ، وتعلن إليها أن ما حدث من ابن أبي ربيعة خليق أن يشجعها على الخروج لا أن يثبطها عنه ؛ فالمرأة التي ترضى عن نفسها حقًا ، وتطمئن إلى قوتها حقًا ، هي التي تبلو خصمها وتلقى عدوها في أي ميدان أراد ، فإذا كان بينه وبينها هذا النضال العنيف الذي يكون بين الرجل والمرأة عادة ، لم تضعف له ، ولم تشفق منه ، وإنما ثبتت له ثباتاً ، وامتنعت عليه امتناعاً ، ولم تمكنه من أن يقهرها ، ويغلبها على أمرها ، وينتصر عليها ، ويظفر منها بما يريد . وإنما اضطرته إلى أن يخضع ويذعن ويستسلم ، ويعترف بعجزه عن أن يبلغ منها ما بلغ من أمثالها ، وهكذا تنتهي به إلى يأس مظلم متكاثف الظلمة لا منفذ للنور منه . وقد يحلو لها أن تعلقه بين اليأس والأمل ، فتبتسم له ابتساماً مُطْمِعاً مغرياً ، وتحتشم أمامه احتشاماً موئساً مهلكاً ، وهي في هذا الإطماع والامتناع تعذبه عذاباً فظيعاً منكراً ، فهي تدنيه وتقصيه ، وهي تغويه

وتضنيه ، وهى تريه الغاية قريبة بعيدة ، والطريق قصيرة طويلة ، وهى لا تتركه آخر الأمر إلا كاسف البال وإن أظهر الرضى وأظهر الابتهاج . تقول أم نوفل للثريا هذا كله وتؤكد لها أن المرأة لا تغلب إلا إذا أحبت ، ولا تقهر إلا إذا أرادت ، ولا تذعن إلا إذا رغبت فى الإذعان . ثم تضطرها إلى الخروج معها إلى المسجد الحرام ، وتزين لها لقاء الفتى هذا الذى يريد أن يقهرها ولا بد أن تقهره ، ويريد أن يبسط سلطانه عليها ولا بد أن تبسط سلطانها عليه . فإذا وصلتا إلى المسجد الحرام كانت الثريا تتأهب لنضال عنيف بينها وبين عمر بن أبى ربيعة ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تفكر فى هذا الفتى الماجن العابث الذى يتصدى لكل فتاة ، ويجرى وراء كل فتاة ، ويريد أن يغرى كل فتاة . لقد رأته فرأت فتى جميلا حقاً ، وسمعت حديثه فسمعت حديثاً عذباً حقاً ، ولكن هذا لا يمنع الفتيات من أن يتقين فتنته ، ويقاومن سحره ، ولا يقعن فى شركه . وإذا لم تستطع فتاة من الفتيات أن تستعصى عليه ، فسوف تستعصى هى عليه ، وتلقنه درساً لا ينساه ، وهو أن من الفتيات الصغيرات الساذجات من يستطعن الثبات له والامتناع عليه ، والارتفاع عما يفتن فيه من ضروب الإغراء

والإغواء . ولا تكاد الثريا وأم نوفل تتقدمان نحو البيت حتى تريا عمر بن أبى ربيعة قائماً باسماً إلى جواره ، يحدق النظر فى وجوه النساء ، ويفصل النظر إلى أجسامهن ، كأنه يمتحن متاعاً يريد أن يشتريه . فأما أم نوفل فتبدى شيئاً من الأعجاب بعمر وجماله وظرفه . وأما الثريا فتسخر من عمر وجماله وظرفه . وتقول : إنها لا ترى إلا فتى قرشيًّا كسائر فتيان قريش . وهى لا ترضى عن وقوفه وترصده للنساء اللائى أقبلن للطواف ، وهى ضيقة أشد الضيق بنظراته الطوال هذه التى تجرد المرأة من ثيابها تجريداً . ولكن عمر قد رآهما فتقدم إليهما فحياهما بابتسامة حلوة ونظرة يملؤها الظرف . فتنكر الثريا على عمر هذه التحية فى ألفاظ لا تبرأ من قسوة ولا تخلو من جفاء ، حتى لتضطر أم نوفل إلى التدخل فى الأمر وإرضاء عمر . ولكن أم نوفل تترك الثريا وتتحدث إلى عمر حديثاً طويلا لم تعرف عنه الثريا شيئاً ، ولكنه دفعها إلى شىء من التفكير عميق . فما هذا الحديث؟ وما الصلة بين أم نوفل وهذا الفتى ؟ وألا يمكن أن تكون أم نوفل هى التى جاءت بها إليه ؟ وإلا ففيم إلحاح أم نوفل عليها فى الخروج للطواف ؟ وإن الثريا لتفكر فى هذا كله . وإذا أم نوفل تقبل عليها فتزعم لها أنها

كانت تعتذر للفتى عما كان منها إليه ، وتتحدث إليها فى أن الامتناع على الرجال لا يكون بالإساءة إليهم ، فقد تستطيع الفتاة أن تفهم الفتى فى أدب ورفق وبشىء من النقاء والصراحة فى موقفها أن أية محاولة يحاولها مخالفة للذوق وغير مجدية عليه ، وليس من العسير على المرأة أن تحمل الرجل على تغيير موقفه منها ، فهى قادرة على أن تخجله وتجعله هزأة بابتسامة تَبْسِمها . وتحاول أم نوفل أن تأخذ الثريا وتذهب إلى عمر لتعتذر إليه ، ولكن الثريا تأبى عليها ذلك . وتبدى احتقارها للفتى وازدراءها له ، وتعلن أن ما قالته للفتى إنما هو أقل ما ينبغى أن يقال له . فتلح أم نوفل عليها فى الاعتذار للفتى ، لأنها قد أساءت إليه فى حين أنه لم يسىء إليها ، وتذعن الثريا آخر الأمر وتذهب إلى الفتى فتعتذر إليه . ولكن أم نوفل لا تنصرف عن المسجد الحرام إلا وقد أحستْ أن الفتاة تميل إلى الفتى ، ولكنها تخفى هذا الميل . وإذن فلم يمكن سخطها عليه وتبرمها به فى كل ما سلف إلا مظهراً من مظاهر الحب .

٤

وفى نفوس النساء فساد كثير وشر عظيم تخفيه صروف الحياة وخطوبها ، وتظهره محن الحياة وتجاربها ، فلعل مجون عمر بن أبى ربيعة قد جعله فتنة للثريا كما جعله فتنة للنساء من قريش ، ولعل الثريا كانت تحسد النساء اللائى بينهن وبين عمر صلة على عبثه معهن ، وتراهن قد استأثرن من دونها بخير كانت تطمع فيه وتطمح إليه . ولعل الثريا حين كانت تنكر على عمر لهوه وعبثه كانت تنكرهما عليه مع غيرها ، وتتحرق فى الوقت نفسه شوقاً إليهما . ونفوس النساء ألغاز مشكلة معضلة تعجز عن حلها أقوى العقول وأفطن الفطن . فلعل احتقار الثريا لعمر وازدراءها له أن يكونا لوناً من ألوان الثناء والإطراء ، وضرباً من ضروب الفتنة والإعجاب . وآية ذلك أن الثريا لم تنم من ليلتها هذه ، وإنما أخذت تفكر فى عمر هذا الفتى العابث الماجن الذى أحبته مع عبثه ومجونه ، بل أحبته من أجل عبثه ومجونه ، وما تدرى كيف تعلل هذا الحب أو كيف تفهمه ؟ فقد كانت تظن أنها تبغض الفتى أشد البغض ، فإذا

هى كلفة به مشوقة إليه حريصة أشد الحرص على أن تكون من صاحباته ، بل على أن تكون صاحبته الوحيدة . وقد كانت تظن أنها تنفر من مجون الفتى وعبثه ، وما كان أحب إليها مع ذلك أن تنعم بهذا المجون والعبث ، وأن تستمتع بهما حتى آخر الدهر . وقد كانت تقدر أنها ستثبت للفتى وتمتنع عليه ، فإذا هى تتورط فى الفتنة به ، وإذا هى تبذل كل ما تملك من قوة لتدافع عن نفسها ، ولتتخلص من هذا الحب الطارئ ، ولكنها لا تفلح فى هذا الدفاع ، لأن خصمها قوى عنيد ، ولأن هذا الخصم ليس عمر ، وإنما هو نفسها ، فهى تحب عمر ولا تستطيع أن تخفى عنه هذا الحب مهما تفعل ومهما تحاول . ولكن الأمر ليس أمرها هى ، وإنما الأمر هو أمر هذا الفتى الذى أحبته ، إنه الفتى الأول والأخير فى نفسها ، وما أكثر الفتيات فى نفسه . فهو بالقياس إليها كل شىء ، وليست هى بالقياس إليه شيئاً . لم تعرف غيره ، وعرف هو غيرها كثيرات . ولم تذق هى لذة الحياة قط ، وما أكثر ما ذاق من ألوان اللذات ، وما بلى من صنوف النعيم . فهل يمكن بعد هذا كله أن يكون قد أحبها ؟ كلا . إن الفتى لصائد لا هم له إلا احتبال الفتيات واختلاب النساء . يغرى الواحدة منهن

بألفاظه الحلوة وأحاديثه المعسولة ، حتى إذا بلغ منها ما يزهده فيها ، انصرف عنها ، والتمس لذته وهواه حيث استطاع ، ولم ينظر إلى هذا كله إلا على أنه لعب ينفق فيه الوقت ، ولهوٌ يستعان به على احتمال الحياة . وهل يمكن لمثل هذا الفتى أن يعرف الحب؟ كلا . هو إذن يريد اللهو والعبث ، وهو خليق أن يتعلم الحب . ويتعلم الحب على يد الثريا هذه التى تحبه ، والتى يسعدها ويملأ قلبها بهجة أن تراه يحبها . وأى شىء أيسر عليها من أن تعلمه الحب؟ يكفى أن يقبل عليها يلتمس عندها ألوان اللذات ، فتقبل عليه حفية به متلطفة له ، وتختلس إليه بين وقت ووقت نظرة غامضة لا يفهم منها شيئاً . وتتحدث إليه مع ذلك أحاديث ملتوية تترك فى نفسه وأمام عقله ألغازاً وأسراراً لا يستطيع أن ينفذ إلى أعماقها ، وإذا هو عاجز عن فهمها ، يتقاضاها شيئاً من الوضوح والجلاء ، فتأبى عليه إلا هذا الغموض الذى يؤذيه ويضنيه ويؤرق عليه ليله وينغص عليه نهاره . وإذا هو مفكر فيها إذا أصبح ، ومفكر فيها إذا أمسى ، ومفكر فيها بين ذلك ، حتى ليلتمس الفرار منها فلا يظفر به إلا فى جهد أى جهد وعناء أى عناء ، وحتى لينكر نفسه وينكر من حوله من الناس والأشياء وينكره

من حوله حين يطول عليهم ما هو مغرق فيه من الوجوم والذهول . وهكذا دبرت الثريا أمرها ، واستعدت للقاء الفتى . ولم يقبل المساء من الغد حتى كانت معه فى المسجد الحرام ، وإذا الفتى يعلن إليها حبه ، وإذا هى تنفر من هذا الحب وتأباه ، وإذا الفتى يلح عليها فيه . وإذا هو ينبئها بأنها تحبه أيضاً . تنكر وتأبى ، ولكن إلحاحها فى الإنكار ، وإصرارها على الإباء ، لا يزيدان حبها إلا وضوحاً ، ولا يزيدان ميلها إلى الإذعان إلا ظهوراً ، ما أسرع ما تتغلب إرادة الفتى ، وما أسرع ما ينتصر الحب ، فإذا الفتاة مذعنة ، وإذا هى معترفة بالحب، وإذا هى قابلة لكل ما يطلب إليها صاحبها . وماذا يطلب إليها صاحبها إلا أن يتما حديثهما بعيداً عن البيت ، فى مكان منعزل من الصحراء من شرقى مكة أو غربيها ؟

ويخلو الفتى إلى الفتاة لا يراهما إلا هذا القمر الذى قام فى مكانه من السماء ، يرسل أشعته المطمئنة إلى الأرض فى أناة وريث ، ويبسط ضوءه الهادئ النقى على الفلاة فيغشيها برداء رقيق من النور ، وإلا هذه النجوم التى تألقت فى السماء كأنها المصابيح ، وانطلقت فى طريقها مسرعة كأنها تستبق . وتتلطف الفتاة بالفتى وتحتفى به فى شىء من الغموض لا عهد

له به . وتمد إليه بين الحين والحين نظرة غامضة يحبها ولا يفهم منها شيئاً ، وتتحدث إليه أحاديث غريبة تنقله إلى عالم آخر غير هذا العالم الذى يعيش فيه . وينصرف الفتى عن الفتاة ، وإنه لموقن بأنه لم يكن مع فتاة من الفتيات اللائى يعرفهن من قبل ، وإنما كان مع فتاة أخرى غريبة ، لها قوة هائلة تتسلط بها عليه ، وفيها مع ذلك شىء من الكبرياء يجعلها تزدريه فلا تلقاه بنفس مشرقة مسفرة ، وإنما تسير معه سيرة غامضة ، وتتحدث إليه أحاديث ملتوية . ويتكرر اللقاء بين الفتى والفتاة وتكثر الخلوة بينه وبينها . ولكن ماذا ؟ إنه ليخلو إلى نفسه الساعات الطوال فيفكر ويمعن فى التفكير ، ويقدر ويغرق فى التقدير ، ويروّى ويلح فى التروية ، ومع ذلك فما كان من دأبه التفكير ، ولا كان من طبعه التقدير ، ولا كان من خلقه التروية . وقد كان يلقى النساء ويجلس إليهن ويتحدث معهن ، ويلهو بما يرى منهن وما يسمع من حديثهن ، لا يتكلف تأويل ما يرى وما يسمع ، ولا يلتمس له تحليلا أو تعليلا . ولكنه منذ أن عرف الثريا وأحبها هذا الحب ، وهو لا يرى منها شيئاً ولا يسمع منها حديثاً إلا عُنى بتفسيره وتأويله ، فإذا وصل من ذلك إلى ما يريد رضى واطمأن . وإذا عجز عن

التعليل والتأويل سخط واضطرب . وهو على كل حال يعجب من نفسه ويسخر منها ويرثى لها لهذا المرض الجديد الذى أصابها والذى لا يجد منه برءاً ، مرض التماس العلة لكل ما يصدر عن الثريا من قول أو عمل والانتهاء فيه إلى المصادر والغايات . وليس من شك فى أن الثريا هى التى دفعت عمر إلى هذا النحو من التفكير ، ودفعته إليه بهذا الغموض الذى كانت تثيره حولها ، فإذا هو يسأل نفسه : ما عسى أن تكون هذه الفتاة التى لا أملك من أمرها شيئاً ، والتى تملك من أمرى كل شىء ؟ وأى شىء فيها يغرينى بها ويدفعنى إليها ويحببها إلىّ ؟ وهل هى تحبنى كما أحبها هذا الحب القوى العنيف الذى لا أعرف له حدًّا ولا أمداً ؟ وإذا كانت تحبنى فما هذه الكبرياء البغيضة التى أحسها منها ، والتى هى مزاج من الرثاء لى والقسوة علىّ ؟ وما لها تسير معى هذه السيرة الغامضة . ولا تتلقانى بنفس مشرقة مسفرة ؟ أتراها تزدرينى كما تزدرى فتيان قريش هؤلاء الذين حيل بينهم وبين الاشتراك فى الحياة السياسية العامة ، فانصرفوا إلى اللهو واللعب ؟ وإذن فمن ذلك الفتى الذى تنظر إليه ، وتداعب الأحلام حين تنظر إليه ، وتفكر فيه فتطيل التفكير ؟ وهنا كان الدم يغلى فى عروق

عمر ، ويصعد اللهب فى وجهه ، وتقدح عيناه بشىء كأنه الشرر . فينهض واقفاً وقد جاشت فى نفسه عواطف ثائرة مختلطة ، واضطربت فى رأسه خواطر قاتمة مظلمة . ولكنه لا يلبث أن يتمثل الثريا فى ساعة من ساعات اللهو ولحظة من لحظات الحنان ، وهى تقبل عليه بوجهها المشرق وثغرها الباسم ونفسها الراضية ، فتمنحه ابتساماتها الحلوة ، وتهدى إليه نظراتها الرفيقة ، وتسوق إليه دعاباتها الظريفة . هنالك كانت تهدأ نفسه ، ويستقر قلبه ، ويرتاح ضميره ، وإذا هو نادم على ما قدم من سوء الظن بهذه التى لا ينبغى أن تساء بها الظنون .

٥

ولكن أمر عمر يشق على الناس جميعاً ، فصاحباته ينكرن انقطاعه عنهن ، وأصدقاؤه ينكرن منه هذا الهدوء الذى لا عهد لهم به ، وهذا التفكير الذى اتصل حتى أصبح عادة له . والناس يتحدثون بأن ابن أبى ربيعة قد نسك . وما نسك ابن أبى ربيعة ، ولكنه قد أحب ، وأحب الثريا هذه الفتاة التى شغلته عن كل شىء وعن كل إنسان ، فأصبح لا يفكر إلا فيها ، ولا يسعى إلا لها ، ولا يحرص إلا عليها . ولكنهم يسمعون المغنين يتغنون له شعراً يذكر فيه الثريا ، وإذا هذا الشعر يكثر ويكثر ، وإذا هم يقولون : عاد الفاسق إلى لهوه وعبثه . ولكن الفاسق لم يعد إلى لهوه وعبثه ، وإنما أحب حقاً وتغنى حبه الصادق فى هذا الشعر العذب المؤثر الذى يسمعونه فيلهون به ، ولا يحاولون أن يستكشفوا ما فيه من المعانى والمرامى والأغراض. ولكن هذا الشعر يتصل ويتصل ولا يذكر إلا الثريا ، وإذا هم يقولون : أصبح عمر بن أبى ربيعة صاحباً للثريا ، لا يتحدث إلا عنها ولا يتغزل إلا فيها ، ولا يتغنى إلا جمالها . ويموت

أبو الثريا فى أكبر الظن فى ذلك الحين ، ويخلو الجو لعمر ، فإذا هو يلقى الثريا جهرة بعد أن كان يلقاها خفية ، وإذا هو لا يخشى أحداً ، فقد مات أبوها ، وليس لها أخ يحميها ، ولن يجد عند غير الأب والأخ من الغيرة ما كان سيجده عندهما ، وآية ذلك أن طائفة من أهلها قد لاموه على لقائها فلم يعبأ بهم ولم يكثرت بلومهم . وقد تحدثوا إليه فى أن الشرف يفرض عليه أن يمتنع عن لقائها حتى لا يفسد مستقبلها وهى جاهلة ، وحتى لا تسوء سمعتهم وهم بريئون . فأظهر شيئاً من الاقتناع ، حتى إذا انصرفوا عنه سخر منهم فى نفسه ، لأنه يرى أن الشرف يفرض عليه أن يلقاها وأن يحرص على لقائها . أليست تحبه ؟ أليست قد وهبت نفسها له ؟ أليس قد وعدها بالوفاء ؟ فانصرافه عنها وهجره لها نكث للعهد وخفر للذمة وحرمان لها من سعادة قد أطمعها فيها . فإذا يئسوا منه تحدثوا إلى الثريا فى أن تغلق بابها من دونه ، وذكروا لها ألمهم للقائها له . ولكن الثريا لا تسمع لهم ، وتعلن إليهم أنها حرة فى أن تلقى من تشاء متى تشاء وكيف تشاء ، وإذا كنتم تألمون فألمكم سخيف ، لأن مصدره العادة والحرص على القديم . أما ألمى إذا انقطعت الأسباب بينى وبين هذا الفتى فألم صادق ،

لأنه ألم السعيد الذى حرم سعادته ، وألم المحب الذى حيل بينه وبين من يهوى . وتنتشر هذه المقالة بين الناس وإذا الناس لا يتحدثون إلا عن الثريا ، لا يقولون : الثريا بنت فلان وإنما يقولون : الثريا صاحبة عمر بن أبى ربيعة . ومنذ ذلك اليوم أخذ اسم أبى الثريا يضؤل ويمّحى ويزول ، وإذا الرواة تختلف فيه : أهو على بن عبد الله بن الحارث ؟ أم هو عبد الله بن الحارث؟ولكن الثريا تُعرف على كل حال بأنها صاحبة ابن أبى ربيعة لا يختلف فى ذلك أحد ولا يمارى فى ذلك أحد . ولكن الناس مع ذلك لم يعرفوا هذا الحب القوى العظيم الذى كان يربط بين الثريا وعمر ، ولم يستطيعوا أن يفرقوا بينه وبين هذا اللهو والعبث الذى كان يربط بين عمر وبعض النساء . ولعل لهم بعض العذر فى ذلك فقد رأوا هذا الفتى الذى يجرى وراء كل فتاة قد جرى وراء الثريا . فما الفرق إذن بين جريه هذا وذاك ؟ ولكن الثريا قد استطاعت بسيرتها الغامضة مع الفتى أن تشغله عن كل شىء إلا عنها . وعن كل تفكير إلا فيها . ولكن الناس لم يعرفوا ذلك ، بل لم يعرفوا شيئاً آخر ، لم يعرفوا أن هذه الفتاة بسيرتها الغامضة ، كانت تدفع الفتى إلى يأس مهلك وضيق شديد وألم لا حد له . أليس

قد عجز الفتى عن فهمها ؟ أليس قد كَلّ الفتى عن احتمال صحبتها ؟ أليس قد ملّ الفتى أن يتقاضاها الوضوح والجلاء ؟ وإذن فما بقاؤه معها ؟ لينصرف إلى صاحباته القديمات ، فيلهو معهن ما شاء له اللهو ، ولْيَنْسَ هذه الفتاة التى تنغص عليه حياته وتفسد عليه أمره . وينصرف الفتى إلى صاحباته . ويُقبل معهن على اللهو ، فيسرف على نفسه وعليهن فيه يريد أن ينسى الثريا . ولكنه لا يبلغ من ذلك شيئاً ، فما زالت الثريا عنده هى كل شىء ، وما زال سلطانها عليه أقوى من كل سلطان . ولكن الناس يقولون : فتى يسرف فى اللهو ويتهالك على اللذة ويغرق فى المجون . وما حاولوا أن يسألوا أنفسهم عن إسرافه فى اللهو ما أصله ؟ وعن تهالكه على اللذة ما مصدره ؟ وعن إغراقه فى المجون ما سببه ؟ ولو أنهم سألوا أنفسهم هذا السؤال لعرفوا أن الفتى إنما يتكلف هذا كله من أجل الثريا . ولعرفوا أن هذا الفتى الذى يرونه راضياً سعيداً ناعم البال . ليس من الرضى والسعادة ونعمة البال فى شىء ، وإنما هو من السخط والشقاء والبؤس فى كل شىء ، ولكنه يتكلف الرضى ويتكلف الابتسام وقد يتكلف الضحك ليخدعهم وليخيل إليهم أنه سعيد موفور . ولكن هل استطاع الفتى أن

يخدع الفتاة عن نفسه ؟ كلا . فإنها لتعلم حق العلم ما يملأ قلبه من حزن وألم ، وما يملأ حياته من بؤس وشقاء ، وإنها لتعرف أنها هي التي قد انتهت به إلى هذا كله . ولكنها مضطرة إلى ذلك . فهي لا تستطيع أن تجلو له نفسها ، وتلغي بينه وبينها الحجب ، لئلا يزهد فيها كما زهد في غيرها من النساء . ولكن هل ترضى الفتاة عن لهو الفتى مع غيرها من النساء ؟ إنها لتعرف أنه لا يقبل على لهوه معهن بنفس راضية وقلب مبتهج . وإنها لتعرف أنه يتكلف هذا اللهو ويتخذه وسيلة إلى نسيان آلامه وأحزانه . وإنها لتعرف أنه يفرّ إلى هذا اللهو من هذا الغموض الذي تثيره حولها . ولكنها لا ترضى عن هذا اللهو مهما كان الأمر . فهي تحاسبه عليه أشد الحساب . وهي تسأله عن خلواته التي يصفها في شعره وصفاً دقيقاً ما أصلها وما مصدرها ؟ فيزعم لها : أنه يذهب في ذلك مذهب الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون . وهي تسمع منه هذا ، ثم تعلن إليه : أنها لن تصدقه بعد ذلك إذا تحدث إليها في الحب ؛ لأنه في كل يوم يتحدث إليها بأكاذيب ليس من شأنها أن تحملها على تصديقه إذا ذكر الحب وما إلى الحب من أخلاق الرجل ذي الطبع الكريم . وإذا كنتَ قد تلوثت بهذه المخزيات فكيف

تستطيع أن تذكر الحب أو تتحدث فيه ؟ وهو يؤكد لها : أنه قد أحبها مخلصاً ، وما زال يحبها مخلصاً ، وأنه ليس ماجناً ولا محترفاً صناعة المجون . ولكن غموضها معه وما يدفعه إليه هذا الغموض من القلق والاضطراب والحزن والألم هو الذى يضطره إلى الانصراف إلى هذا اللهو ، والترفيه عن نفسه بتصوير هذه الخلوات الآثمة التى ليس لها وجود إلا فى خياله . حتى ليعتقد كثير من الناس خطأ أنه قد اتخذ المجون مهنة وعاش على اقتراف الآثام والدنيات . ولكنها تعلن إليه : أنها لا تسمح له مطلقاً باللهو مع النساء ، ولا بتصوير هذه الخلوات التى يزعم ألا وجود لها إلا فى خياله . فهذا كله يؤذيها ويُضْنيها ويشق عليها . وهو يعلن إليها : أن غموضها مصدر علته ، وأنه يريد أن يعرفها حقاً ، ويعرف هل تحبه حقاً ؟ فإن كانت تحبه ففيم هذه القسوة ؟ وفيم تعذيب الحبيب ؟ وإن كانت تكرهه ففيم صحبتها له ؟ وفيم اتصالها به ؟ وهى تنظر إليه باسمة ثم تميل إليه فتضمه إلى صدرها ضما رفيقاً ملؤه الحنان والحب ، وتضع على ثغره قبلة حلوة طويلة حارة ، ثم تنظر إليه ، ولا تقول شيئاً . ثم تحيط عنقه بيدها . وتميله فى رفق حتى تضع رأسه على كتفها ، وتظل تنظر إليه ، ويظل ينظر إليها وهما

مغرقان فى صمت عميق . أطال هذا الموقف أم قصر ؟ لاسبيل إلى معرفة ذلك . ولكن الشىء الذى ليس فيه شك ولا ريب هو أنها قد انعطفت إليه فقبلت ثغره مرة أخرى ، ثم أقامته حتى إذا استوى فى مجلسه جعلت تمر أصابعها فى شعره رفيقة به ، باسمة له . مطيلة النظر إليه . صامتة مع ذلك لا تقول شيئاً ، وكأن هذا العطف الصامت الحار قد ملأ نفسه رضاً وأمناً ودعة وهدوءاً ، وإذا هو يسألها عن هذا العطف الذى لم يألفه ، وعن هذا الحنان الذى لم يتعوده ، وعن هذه النظرات التى برئت من القسوة ، وعن هذا الإغراء الذى خلص من الإباء ؟ وإذا هى تقول له : فاستمتع بهذا كله ، ولا تسألنى عن شىء . وينعم عمر بهذا العطف الخالص الذى تقدمه له الثريا ، ويحرص منذ اليوم على أن ينتهز كل فرصة تهيأ له . لينعم بكل سعادة تعرض عليه ، لا يسأل نفسه عن مصدرها ولا عن أسبابها . ولا يتكلف تعليلها ولا تأويلها ، فقد استقر فى قلبه أن يتخفف من عقله بين الحين والحين ، وأن يعيش بحسه وقلبه وضميره . فما ينبغى أن تكون حياة الناس كلها بحثاً عن العلل ، والتماساً للمصادر والأسباب .

٦

وقد خيل إلى عمر أن الأمور ستستقيم له منذ اليوم ، وأن الثريا ستقف عليه منذ اليوم قلبها وعقلها وحسها وشعورها وعواطفها وأهواءها ، وأنها لن تصرف عنه هذه السعادة التى غمرته بها والتى صرفته عن الحياة والأحياء وأنسته الناس والأشياء ، وأنها لن تنزل به إلى هذه الأرض التى يعيش عليها الناس بعد أن ارتفعت به إلى هذا الجو البعيد فى السماء . وقد آوى عمر إلى مضجعه من تلك الليلة ، فلم يمتنع عليه النوم كما كان يمتنع عليه فى لياليه التى خلت ، وإنما لبى دعاءه حين دعاه ، ومد ذراعيه فطوق بهما عنقه فى كثير من الرأفة والرحمة والحنان ، وإذا عمر ينسى نفسه ويمعن فى هذا الرقاد الحلو الهادئ المطمئن. ثم يسفر الصبح ويرتفع الضحى وتكسو الشمس بضوئها النقى ظواهر مكة وبطاحها . ويفيق عمر من نومه هادئاً مطمئن النفس رضىّ البال . وينفق نهاره بين أصدقائه يخوض معهم فى ألوان من الحديث . ويجاذبهم أطرافاً من اللهو . فإذا أقبل الليل وبسط أرديته السود على ما يحيط بمكة من جبال وآكام طلب

عمر إلى صديق له أن يصحبه إلى الثّريا ، فيظهر هذا الصديق شيئاً من التردد لأنه يخشى أن يُفسد على عمر خلوته مع صاحبته . ولكن عمر يعلن إليه : أنه إنما يذهب إليها الليلة ليأخذ معها فى ألوان الحديث ، وأنه ليس فى حاجة إلى هذه الخلوة وقد أنفق معها بالأمس يوماً ذاقا فيه من النعيم ما شاء حبه لها ، وما شاءت قدرتها على فتنته وإمتاعه . ويُقبل الصديقان على الثّريا فتستقبلهما جارية من جواريها وتجلسهما فى بهو من أبهاء الاستقبال ، وكأنّ الثّريا قد سمعت صوت عمر وهو يسأل جاريتها عنها ، فهى تكشف الستر ، وتسرع فى الخروج إليه . ولكنها تنظر فترى صاحبه ، فترجع . فيقول لها عمر : أقبلى أقبلى ، فإنه ليس ممن أحتشمه . ولا أخفى عنه شيئاً . ويستلقى فيضحك . ولا تكاد الثّريا ترى ذلك حتّى تغضب غضباً شديداً . يضطرب له دمها ويغلى . وإذا هى قد استحالت استحالة كاملة ، . فانحسر عنها ضعف الأنوثة وسرت فى جسمها قوة غريبة . وإذا هى تقبل على عمر وكأنها النمر قد جرى فيه غضب وهياج . وتدنو منه وعيناها تقدحان شرراً . ثم ترفع يدها وتهوى بظاهر كفها على وجهه ــ وقد كانت تتختم فى أصابعها العشر كسائر نساء عصرها ــ وإذا الدم

يتفجر من أنفه ومن فمه فى قوة كما يتفجر الماء من الينبوع . وعمر ينظر إلى هذا الدم مرّةً . وإلى الثريا مرة أخرى ، فى ذهول وغفلة وبله . لم يفهم شيئاً . ولم يقدّر شيئاً . ولم ينتظر شيئاً . وإنما أخِذَ على غرة أخذاً . والثريا ماثلة ذاهلة أمامه لم يتح لها أن تفكر فى الأمر قبل وقوعه . ولم تتوقع أن ينتهى الأمر إلى ما انتهى إليه . وهذا الصديق قد قام فى مكانه ينظر إليهما وقد أخذه الذهول كما أخذهما . ولكنه كان أسرعهم إلى الإفاقة من هذا الذهول ، وإذا هو يسرع إلى بعض الماء فيعالج به هذا النزيف . فإذا جف الدم ، وطُرد عن عمر ذهوله ، وانجلت عنه غفلته ، واستيقظ من هذا البله ، ظل يرمق الثريا بنظرات فيها كثير من العتب وكثير من الحزن وكثير من الحب أيضاً . وكأنَّ الثريا قد أحسَّتْ وقع هذه النظرات على شخصها ، فإذا هى تتقدم إلى عمر وتدنو منه وتجلس إلى جواره ، ثم تنظر إليه فإذا فى وجهه شحوب ، وفى شفتيه تورم ظاهر . وهى تفتح فمه فإذا ثنيتاه العليبان قد تحركتا وكادتا أن تسقطا . وهى تعتذر إليه وتستعطفه وترضاه ، وتميل عليه فتضمه وتقبّله . ثم تلاطفه بيدها ، تداعب بها خده مرة ، وتجرى أصابعها فى شعره مرة أخرى . ويرى الصديق بعض هذا فيستأذن وينصرف .

ويترك العاشقين يتراضيان. وتخلو الثريا إلى عمر فتبذل له ما تملك وما لا تملك حتى لا ينصرف عنها إلا وقد ظفرت منه بالرضا ؛ فهي تذيقه من ألوان اللذة بعض ثمراتها الحلوة ، وهي تعيد النظر إلى ثنيتيه مرة ومرة ومرات . وهي تبدى حزنها العظيم وأسفها الشديد، حتى ليهون عمر عليها الأمر، وكأن الخطب خطبها لا خطبه . وهو يعلن إليها أنه سيعالج ثنيتيه حتى تكون راضية . ويقبل عمر من الغد على غير واحد من أطباء الحجاز . فلا يجد عندهم علاجا ناجعاً ، وإذا هو مضطر إلى أن يسافر إلى البصرة يلتمس عند أطبائها من ألوان العلاج ما افتقده عند أطباء الحجاز فلم يجده .. ويعود عمر من البصرة فإذا ثنيتاه قد ثبتتا ولكنهما قد اسودتا . ولا تكاد الثريا ترى ذلك حتى تجزع جزعاً شديداً، ولكن عمر يهون عليها ويعلن إليها . أنها قد تركت به أثراً خالداً سوف يعتز به طوال الحياة . ولا أدرى أأرضاها هذا القول؟ ولكنى أعلم أن عمر كان منذ اليوم يعرف بسواد هاتين الثنيتين ، وكان يفخر فى شعره بسواد ثنيتيه .

وقد أنفق عمر مع الثريا بعد أن عاد من البصرة أياماً سعيدة حافلة بألوان اللذة وصنوف النعيم . لم يعرف فيها ألماً ولا حزناً ،

ولم يُحِس فيها ضيقاً ولا اضطراباً . وكانت الثريا رفيقة به إلى أقصى غايات الرفق ، لطيفة معه إلى أبعد حدود اللطف محبة له إلى أرقى درجات الحب ، تصرفه فى فنون الهزل والجد ، وتنقله فى أطوار المرح والهدوء ، وهو مستسلم لها استسلام الطفل إلى أمه الحنون ، واجدا فى ذلك لذة ممتعة ومتاعاً لذيذاً . وقد نظر عمر إلى نفسه ذات يوم فإذا هو سعيد موفور حقا . وإذا هو ليس فى حاجة إلى أن يتكلف الرضا ويتكلف الابتسام وليس فى حاجة إلى أن يُقبل على اللهو فيسرف على نفسه فيه ، قد فارقت نفسه كآبتها ، وبرئ قلبه من مرضه ، فهو راض سعيد ناعم البال رخىّ العيش يبتسم للحياة وتبتسم له الحياة .

٧

ولكن نظرة واحدة من نظرات الثريا كأنها السهم ، فيها عطف وقسوة ، وفيها إغراء يثير الطمع ، وإباء يبعث على اليأس . هذه النظرة زعيمة بأن تعيد إلى عمر كآبة نفسه ومرض قلبه . وإذا هو ضيق بالثريا ساخط عليها منصرف عنها إلى من يلقى من النساء . وتنظر الثريا إلى عمر هذه النظرة ذات يوم ، وكان اليوم من أيام مكة القائمة القاعدة ، وكان موسم الحج قد أقبل ، وأقبلت معه المترفات من نساء المدينة والشام والعراق ، وخرجت له المترفات من نساء مكة أيضاً ، وكانت الجوارى الحسان يمضين فى مكة من أعلاها إلى أسفلها ، يتغنين أغانيهن الحلوة العذبة التى تتلقفها الأسماع وتطمئن لها القلوب ، والتى تنبىء الناس بإقبال الموسم . وكان هذا كله يثير فى قلوب الناس ألواناً من الفرح مختلفة متباينة ، فقوم يفرحون لرواج تجارتهم ، ولما يضطرهم إليه الموسم من بيع وشراء ، وقوم يفرحون لما يتيح لهم الموسم من اختلاط ولهو وحرية لا يجدونها فى حياتهم العادية ، وقوم يفرحون لما تحمل إليهم الهوادج من نساء وفتيات

يكلفون بهن ويرغبون فيهن ويتحرقون إليهن تحرقاً . ويخرج عمر من عند الثريا يلتمس الراحة لنفسه المعذبة . وينشد الاطمئنان لقلبه المضطرب ، ويبتغى الهدوء لضميره القلق ، فإنه لماض فى طريقه بالقرب من منىً فما يروعه إلا هودج ضخم تظهر عليه آثار النعمة والترف ، فيعرض لهذا الهودج ويتصل بصاحبته ويتحدث إليها ، فإذا هى رملة بنت عبد الله بن خلف ، وإذا جسمها جميل رائع ، وإن كان فى وجهها شىء من جهامة ، وفى أنفها قليل من كبر . وإذا هو يقول فيها قصيدته :

أصبح القلب فى الحبال رهينا مُقْصَداً يوم فارق الظاعنينا

وإذا هذه القصيدة تشيع بين الناس ، ولكنها مع ذلك لاتصل إلى الثريا ، وقد كانت الأمور من أجل ذلك خليقة أن تسير سهلة يسيرة بين عمر والثريا ، فالثريا لم تعلم بشىء مما كان بين عمر ورملة . ولكن أم نوفل . نعمْ أم نوفل هذه التى تركناها مدة طويلة ، ولم نعد نتحدث عنها أو نعرف من أمرها شيئاً ، هذه المرأة تقبل على عمر ذات يوم مغرية مطمعة ، فلا ترى منه إلا إباء وصدوداً فتنصرف عنه ، وإنها لتضمر فى نفسها أمراً .

ثم تسمع أنه قد رأى رملة وتحدث إليها وقال فيها شعراً ، وإذا

هى تستقصى هذا الشعر وتستظهره . ثم تقبل على الثريا فتسلم عليها ، وتسألها : ألا تعلمين ؟ فتقول الثريا : ماذا أعلم ؟ فتبتسم أم نوفل فى دهاء ومكر وفى سخرية أيضاً وتقول لها : ألا تعلمين أن ابن أبى ربيعة قد تغزل فى رملة بنت عبد الله بن خلف ؟ فتقول لها الثريا فى غضب وحدة : ماذا تقولين ؟ فتقول أم نوفل : أقول الحق . ثم تنشدها قصيدة عمر فى رملة . ولكن الثريا لا تكاد تسمع البيت الأول منها :

أصبح القلب فى الحبال رهينا   مُقصداً يوم فارق الظاعنينا

حتى تثور وتفور وتقول : إنه لوَقاح صَنَعٌ بلسانه ، ولئن سلمتُ له لأردَّن من شأوه ، ولأثنين من عنانه ، ولأعرفنه نفسه . فلما بلغت أم نوفل إلى قوله :

قلتُ من أنتمُ فصدت وقالت   أمبِدٌّ سؤالك العالمينا

قالت الثريا : إنه لَسَألٌ ملحّ ، قبحاً له ، ولقد أجابته إن وفت . فلما بلغت إلى قوله :

نحن من ساكنى العراق وكنا   قبله قاطنين مكة حينا

قالت : غمزته الجهمة . فلما بلغت إلى قوله :

قد صدقناك إذ سألت فمن أنْـ   ـتَ ؟ عسى أن يجر شأن شئونا

قالت : رمته الورهاء بآخر ما عندها فى مقام واحد .

ويقبل عمر على الثريا بعد ذلك ، فإذا موقف من أشد المواقف تأثيراً فى النفس ، ذلك أن الثريا تتهمه بحب رملة ، وتسمعه ما قاله فيها من الغزل ، وعمر ينكر هذه التهمة ، ولكن هذه التهمة ليست متكلفة ولا منتحلة ، وإنما كان بين عمر ورملة لقاء وغزل . ولكن عمر والثريا يختلفان فى هذا اللقاء وهذا الغزل . فأما الثريا فترى أن عمر قد أحب رملة وكلف بها ، ومن أجل ذلك قال فيها ما قاله من الغزل . وأما عمر فيعلن أنه لم يحب رملة ولم يكلف بها ، ويؤكد أنها لم تقع منه موقعاً ، وأنه لا يحب إلا الثريا . وهو إذا كان قد تغزل فى رملة ، فليس معنى هذا أنه أحبها ، وإنما معناه أنه تأثر فى لحظة من اللحظات بمؤثرات حسية خالصة ، ليس بينها وبين القلب والعاطفة صلة فاسترسل مع حبه للثريا ، ولم ينظر إلى ما كان بينه وبين رملة من لقاء وحديث إلا كما ينظر إلى متعة عارضة لا قيمة لها . ولذلك نسى الأمر ، ويكاد أن يكون قد نسى الشعر أيضاً . وهو مخلص حين ينكر هذا الحب ، ومخلص حين يزدرى هذه الأشياء التافهة . ويرى ألا قيمة لها . وهو يريد أن يأخذ معها بحظه من الفكاهة والدعابة ولكنها تأبى عليه ما يريد ، وتعلن مغاضبتها له ، وتؤكد له : أنه لن يظفر منها منذ الآن بشىء .

وعمر ينكر هذه القسوة . ويلومها على هذه الغلظة ، ولكنه مهما يلح فى اللوم ويسرف فى الاستعطاف فهى لا ترق ولا تعطف ، وإنما تمضى فى إبائها ونفورها ، وتنصح له أن يتركها وأن يصاحب رملة أو غير رملة من هؤلاء النساء اللائى يتغزل فيهن . فهى قد شبعت من هذا الخداع . وعمر يؤكد لها : أنه ليس مخادعاً ولا شيئاً يشبه المخادع ، ويحاول أن يوضح لها رأيه فى هذه الصلات المادية الحسية التى تجمع الرجل والمرأة أحياناً ، دون أن يكون هناك سبب آخر من عقل أو شعور ، فهذه الصلات صلات تافهة لا قيمة لها ، ولكن الثريا تقول له : مهما يكن رأيك فيما كان بينك وبين رملة فأنا آلم له ، بل إنه لينغص على حياتى كلها تنغيصاً . ثم تنصرف عنه ، ويمضى عمر فيبعث إليها كتاباً كله حب وشوق وكله استعطاف وترضى ، ولكنها لا تجيبه ولا ترد عليه ، وإنما تمعن فى إعراض يملؤه السخط والازدراء ، ويصدر عن نفس شديدة الكبرياء . فإذا لم يجد عمر وسيلة إلى إرضائها خلا إلى نفسه كئيباً محزوناً وقال قصيدته الرائعة :

من رسولى إلى الثريا فإنى ضقتُ ذرعاً بهجرها والكتاب

سلبتنى مَجَّاجَةُ المسك عقلى فسلوها ماذا أحل اغتصابى

وهى مكنونة تحير منهـــا في أديم الخدين ماء الشباب
أبرزوها مثل المهاة تهادى بين خمس كواعب أتراب
ثم قالوا تحبها ؟ قلتُ جدا عدد الرمل والحصى والتراب

ويشرق الضبح ذات يوم فيرى الثريا فى طريقها إلى الطائف ، تنتهز فرصة الصيف من ناحية ، وتريد البعد عن عمر من ناحية أخرى . ويرى عمر وقد أفاق من نوم غير عميق وهو ينظر إلى الشمس هذه التى سعت إلى غرفته فى استحياء ، ثم أخذ الحياء يزول عنها شيئاً فشيئاً ، وإذا هى تغمر الغرفة فى جراءة أشبه شيء بالوقاحة . وقد كان عمر خليقاً ألا ينظر إلى الشمس هذه النظرة ، وأن يستمتع بضوئها حين ينفذ من الأفق ضئيلا نحيلا كأنه السهم ، ثم يمضى أمامه ويمتد من جميع أقطاره فيغمر الأرض والسماء جميعاً ، ويملأ ما بينهما بهجة وجمالا . كان عمر خليقاً أن يستمتع بهذا الضوء المشرق الصافى الذى يبعث فى النفوس والأجسام حركة وحياة ونشاطاً . ولكنه كان فى هذا الصباح مثقل النفس والقلب بحزن يشبه الموت . فلم يستطع أن يخلص لهذا الضوء وأن يستمتع به ، فقد كان هجر الثريا له أشبه شيء بالصاعقة التى نزلت عليه دون أن يفكر فيها أو يتوقع لها نزولا . فما أكثر ما تغزل عمر فى

غير رملة من النساء ، فما لقى من الثريا مثل ما لقيه هذه المرة من الغيرة الشديدة التى لم تعرف لها حدا تنتهى إليه ، وإنما مضت أمامها لاتلوى على شىء ، وإذا الثريا ساخطة عليه أكبر السخط واجدة عليه أعظم الموجدة ، وهو يحاول أن يرضيها ما وجد إلى رضاها سبيلا ، ولكنه لا يبلغ مما يريد شيئاً . ويقبل المساء وهو غارق فى تفكيره هذا الحزين . فإنه لفى ما هو فيه إذ يقبل عليه صديقه ابن أبى عتيق ، فلا يكاد يراه حتى يقول له :

سأبلغ رسالتك التى كلفتنى إياها . قال عمر : وما هذه الرسالة ؟ قال ابن أبى عتيق : أنسيت قولك :

من رسولى إلى الثريا فإنى ضقتُ ذرعاً بهجرها والكتاب؟

فإنى لم أكد أسمع هذه الأبيات حتى عرفتُ أنك تريدنى وتنوه بى . فقم فتعال معى أصلحْ بينك وبين الثريا ، فأنا رسولك الذى سألتَ عنه . ويمضى الصديقان ووجههما الطائف حيث تقيم الثريا . فتستقبلهما أم نوفل . ولكنها تجلس ابن أبى عتيق فى بهو من أبهاء الاستقبال ، وتجلس عمر فى حجرة من هذه الحجرات الخاصة التى كانت تشهد ما يأخذ فيه عمر مع الثريا من سمر ولهو . فإذا سألها عمر عن ذلك قالت له : إن الثريا لو علمت بأنك هنا ما أقبلتْ . فهى غضبى

عليك غضباً لا حد له . فيسكت عمر ، وتهتف أم نوفل بالثريا وتعلن إليها زيارة ابن أبي عتيق ، فتقبل خفيفة نشيطة فتسلم عليه ، ويحدثها ابن أبي عتيق عن ألم عمر وحزنه ، وما يلقى من هذا الندم الذى يكلفه شططاً ، ويرهقه من أمره عسراً ، ويخبرها بأن عمر موجود . وأنه قد أقبل ليستعطفها ويترضاها ، ثم يهتف به ، فيدخل عمر وهو متوجع يألم أشد الألم لما تورط فيه من لقاء رملة والحديث إليها ، ويألم لأن هذا الأمر قد تكشف عن كوارث ، ونغص الحياة عليه وعلى حبيبته . والثريا تنظر إليه وتسمع له ، وما كانت تظن أنه سيضعف إلى هذا الحد ، وإذا هى كلها إشفاق ورحمة ، وإذا هى تكره أن يألم حبيبها هذا الألم الثقيل ، وإذا هى تعلن رضاها عنه ، وتثق بما يضمر لها من حب . وإذا هى ليست فى حاجة إلى أن يعترف لها بهذا الحب وقوته وسلطانه على نفسه . وإذا الأمر بينهما قد عاد إلى ما كان عليه من صفاء ونقاء .

٨

ويخلو عمر إلى الثريا فيتحدث معها فيما يتحدث فيه العشاق . وهل للعشاق حديث إلا الحب ؟ وقد تحدث عمر والثريا ما شاء لهما الحب من حديث . ومن يدرى ؟ فلعلهما قد تعاتبا فيما كان من كل منهما أيام القطيعة . يقول عمر للثريا : لقد أعرضتِ عنى ، ولم تفكرى فىّ ، ولم تحفلى بما ألم أو ما كان يمكن أن يلم بى من الأحداث والخطوب ، وما أدرى ماذا كنت تصنعين بحبك حين انقطعت بيننا الأسباب ؟ فتقول له الثريا : كلا يا أحب الناس إلىّ وأكرمهم علىّ وآثرهم عندى وأحسنهم مسلكاً إلى نفسى ومنزلا من قلبى . لئن كنتُ قد أعرضتُ عنك فإنى ما نسيتُك ولن أنساك . وكم أرقنى الشوق إليك ، وكم حرقنى البعد عنك . ولو لم أكن أحبك أكنتُ أصفح عنك ، وأرضى عليك ؟ لقد أحببتك وكنتُ وفية أمينة ، ولكنك وإن أحببتنى إلا أن هذا الحب لم يكلفك رهبانية ولا نسكاً . فأنتَ تستمتع بالحياة ، وتبدل من الأخدان والخليلات كما تبدل ثيابك . ألا تعلم أن حياتك هذه العابثة

الماجنة التي لا ترجو لأحد ولا لشيء وقاراً ، والتي تندفع فيها إلى غير حد ، تؤذيني وتضنيني وتفسد علي أمرى كله ؟ فيقول لها : ولكني أحبك حبًّا لا أعرف له حدا ولا أمدا . ولو لم أكن أحبك أكنتُ أتجشم ما تجشمت من أهوال في سبيل رضاكِ عني ؟ وما ينبغي أن تتحدثي عما بيني وبين النساء من صلات ، فهذه صلات مادية لا تقوم على الشعور ولا على العقل ، ويجب أن تزدريها كما أزدريها . وأنتِ تعلمين أني لا أحب هؤلاء النساء ولا أكلف بهن . إنهن لا يقعن مني موقعاً وأنا لا أحب إلا إياك ولا أكلف إلا بك . وأنا قد أتأثر في لحظة من اللحظات بمؤثرات حسية خالصة ليس بينها وبين القلب والعاطفة صلة ، فأنطقُ بهذا الغزل الذي تقيمين الدنيا من أجله وتقعدين بها ، وهو في حقيقة الأمر لا يدل على شيء. فتقول له . ولكني مع ذلك لا أريد أن تتحدث إلا عني ، ولا تتغزل إلا فيّ ، ولا تمدح إلا إياي . إني أحبك وأغار عليك وأنت تعرف الغيرة إذا اضطرمت نارها في قلوب النساء كيف تلتهم كل شيء ، وكيف تمتنع على كل روية وتستعصي على كل تفكير . لقد وفيتُ لك كما لم تف امرأة لعاشقها قط ، ولقد خنتني مع النساء ، ولم ترع للحب حرمة ولم ترج للوفاء

وقاراً . فانظرْ إلى نتيجة هذه المقارنة وإلى أثرها فى قلب امرأة عاشقة غالية فى العشق ، لا تعرف فى الحب هوادة ولا ليناً ولا تقبل فيه موادعة ولا مصانعة . ويبذل عمر كثيراً من الجهد ويحتمل كثيراً من العناء حتى يوفق إلى إرضاء صاحبته واستعطافها عليه واجتذابها إليه . ولكنه يقول لها : ومع ذلك فأنا أحب أن تغارى على ، وأن تهيمى بى ، وأن تجنبينى سيرتك هذه الغامضة. أريد أن أراك دائماً حناناً خالصاً ، بل أريد أن تضايقينى بحبك الملح ، وأن تغرقينى بسَيْلٍ جارف من العواطف يندفع فلا يكاد يُبقى على شىء ، فأنا أجد فى هذا كله اللذة كل اللذة والنعيم كل النعيم . فإذا انتهى هذا الحديث كان العاشقان قد اتفقا على أن يغير كل منهما سيرته مع الآخر ، تجنبه الثريا قسوتها وإباءها ، وكبرياءها وازدراءها ، ويجنبها انصرافه إلى النساء ، ولهوه معهن ، وغزله فيهن . ثم ينصرف عمر إلى مكة ، ولكن الصباح لايكاد يشرق ، والضحى لا يكاد يرتفع من الغد ، حتى يكون عمر فى طريقه إلى الطائف للقاء الثريا ، لا يبالى هذه الشمس التى ارتفعت حتى قاربت أن تستوى فى كبد السماء ، وقد أخذت أشعتها المحرقة تلح على الأرض والناسِ حتِي قهرتها وقهرتهم أو كادت . وإنما يمضى أمامه

لا يلوى على شيء ، وقد سكن من حوله كل شيء ، حتى لا يسمع إلا أخفاف مطيته تمس الأرض مسا رفيقاً ، وإلا هذه الأنات التى ترسلها المطايا إذا جهدها السير وحنت إلى الراحة ، وإلا ما كان يناجى به نفسه من حديث الثريا إذا لقيها وجلس إليها . وإنه لفى ذلك وإذا صوت حلو عذب رقيق يأتيه من قريب ، وإذا هذا الصوت لا يكاد يبلغ أذنيه حتى ينتهى إلى نفسه فيمس منها موضعاً دقيق الحس سريع التأثر ، وإذا هذا الصوت يحمل إليه تحية عذبة هى التى يسمعها من صاحبته كلما لقيته . هنالك يقف ويلتفت صوب الصوت ، فإذا الثريا ، كانت قد أقبلت لتلقاه فى مكة ، وكان هو قد أقبل ليلقاها فى الطائف ، فالتقيا فى الطريق ، ويدنو الفتى من الفتاة فيضمها إليه ، وتُلقى هى بنفسها عليه ، ويظلان على ذلك وقتاً لا يدريان أكان طويلا أم قصيراً ، ولكنهما يفيقان على قطرات من الدموع لايدريان أكانت دموعه هو ؟ أم كانت دموعها هى ؟ لأن كلا منهما قد بكى ، لأنه لم يملك عواطفه ، ولم يستطع أن يحبس الدمع ، فانهمل الدمع من عينيه انهمالا . وقد أتيح لهما بعد لحظة أن يتمالكا ويتماسكا فأخذ كل منهما ينظر إلى صاحبه وهو يهدى إليه

ابتسامة حلوة يبلها الدمع . ولكن عمر يأخذ بيدها ، ويجلسها ، ويجلس إلى جانبها ، ويطوق عنقها بذراعه ، ويظل ينظر إليها ، وتظل تنظر إليه ، وهما لا يقولان شيئاً . ثم تسمعه يتحدث إليها فى صوت هادئ وادع وهو يقول لها : ألا ترين أن الشمس محرقة والقيظ شديد ؟ فهلم بنا ، تعودين معى إلى مكة أو أعود معك إلى الطائف ؟ ولكن الثريا لا تجيبه ، وإنما تنحدر من عينيها دمعتان هادئتان يمسحهما عمر فى رفق ، ثم ينعطف إليها فيقبلها ، ثم ينهضها فلا تمتنع عليه ، وإنما تستجيب له فتنهض غير متثاقلة وإذا هو يطوق خصرها بذراعه ، ويسعى معها رفيقاً ، فتسعى مطيعة مذعنة ، وعلى وجهها إشراق كئيب ، وعلى ثغرها ابتسام حزين . حتى إذا تهيأ لاستئناف السير قال لها : سأذهب معك إلى الطائف . وما دام الأمر بيننا - كما أرى ، فلن أكلفك بعد الآن مشقة السفر وعناء الرحيل إلى مكة ، وسأختلف إليك كل يوم ما دمت تصيفين فى الطائف . ومنذ اليوم كان النهار لا يرتفع إلا رأى عمر فى طريقه إلى الثريا . يمضى أمامه مسرعاً فى المضى ، يدفعه عزم لا يعرف الكلال ، وشوق لا هواده فيه وحب لا حد له ، وهو يمضى ويمضى لا يحس جهداً ولا مشقة بل لا يشعر

بأنه يمضي ، لأنه لا يفكر إلا فى أن صاحبته بعيدة عنه ، ويريد الوصول إليها . فإنه لفى طريقه ذات يوم ، وإذا أصوات تصل إليه من بعيد . فلا يحفل بها ولا يلقى إليها بالا ، وإنما يمضى أمامه لا يلوى على شيء ولا يقف عند شيء ، ولكن هذه الأصوات تدنو منه أو يدنو هو منها ، فيلتفت فإذا جماعة من الركبان ، هؤلاء الذين يحملون الفاكهة من الطائف إلى مكة وإلى غير مكة من بلاد الحجاز ، فيسألهم عن الأخبار قبلهم ، فيقولون : ما استطرفنا خبرا ، إلا أننا سمعنا عند رحيلنا نواحاً وصياحاً عالياً على امرأة من قريش اسمها اسم نجم فى السماء ، وقد سقط علينا اسمه . فيقول عمر : الثريا ؟ فيقولون : نعم . ولا يكاد عمر يسمع هذا حتى يخشى أن يكون هذا النواح والصياح على الثريا صديقته ، فقد كان قد تركها عليلة ، ولعل العلة أن تكون قد اشتدت بها فذهبت بحياتها . ولا يكاد عمر يفكر فى هذا حتى تضطرب نفسه كلها ، وإذا هو مجنون أو كالمجنون ، يريد أن يتبين الأمر ويعرف حقيقته ، وإذا هو يوجه فرسه على وجهه إلى الطائف يركضه ملء فروجه ، ويسلك طريق كَـدَاء ، وهى أخشن الطرق وأقربها . حتى ينتهى إلى الثريا ، وقد توقعته ، وهى تتشوف له وتشرف . فيجدها

سليمة عميمة ، ومعها أختاها رضيا وأم عثمان ، فيخبرها الخبر ، فتضحك وتقول : أنا والله أمرتهم بذلك ، لأختبر مالى عندك ، فيقول عمر فى ذلك قصيدته :

تشكى الكميتُ الجرى لما جَهَدْته ... وبيَّن لو يسطيع أن يتكلما

٩

وكان لعمر أخ صالح تقى ورع هو الحارث ، وكان يكره من أخيه عمر حياته اللاهية الفارغة ، وكثيراً ما ضاق بهذه الأحاديث التى يسمعها عنه ، والتى تقطر كلها إثما ، وتشيع فيها الخطيئة كما تشيع الحياة فى الغصن المورق اللدن . وكثيراً ما خلا إليه يعظه وينهاه عن هذا العبث الدائم واللعب المتصل واللهو المقيم . وكان عمر يسمع له غير حافل به ولا آبه له ولا مكترث بحديثه ولا معنى بما يقول . ومن يدرى ؟ فلعل عمر قد حاول أن يعبث بالحارث كما يعبث بهؤلاء النساء ، فتقدم إليه فى أن يشاركه فى لهوه وعبثه ، ونصح له بأن ينعم بالشباب ، ويذوق لذاته كلها ، ويستمتع بما فيه من فنون الترف وألوان الغبطة . ولو أن الحارث كان رجلا لين النفس فاتر الرأى لا يحفل بالشرف ولا يقدر المروءة لشايع أخاه على ما أحب ؛ فوسائل الإغراء قوية . وسبل العبث ميسرة ، والعصر كله غارق فى اللهو إلى أذنيه . ولكن الحارث كان رجلا صلب الرأى جرىء القلب مستمسكاً بالآداب حريصاً على الشرف .

فلم يكن من سبيل إلى أن يندفع مع أخيه فى حياة العبث من ناحية ، ولم يكن من سبيل إلى أن يترك أخاه مندفعاً فى هذه الحياة من ناحية أخرى . وكان من أجل ذلك ينصح لأخيه ما وسعه النصح ، وينكر عليه ما وجد إلى الإنكار عليه سبيلا . وكان أشد ما يعجب له منه أنه لا يسأم اللذة ، ولا يضيق باللهو ، ولا يحتاج من حين وحين إلى شىء من الحزن يرد نفسه إلى بعض أطوار الجد ، ويصور له الحياة على أنها شىء غير هذا الباطل الذى لا ينقضى والعبث الذى لا يزول . وكان أشد ما يألم له أن أخاه ليس إلا واحداً من هؤلاء الغزلين الذين أخذوا يكثرون فى الحجاز ، وينشرون دعوتهم إلى العبث . وقد أخذت هذه الدعوة تقوى وتشيع وتنبث فى أطراف الأرض فعظم الشر وكثر الفساد . وليس من شك فى أن الحارث قد كان ينصح لهؤلاء العابثين كما ينصح لأخيه . ولكنهم كانوا يزورون عنه ويعرضون عن نصحه . وكانوا ينكرون عليه نسكه وعبادته ، ويضيقون بحياته هذه البغيضة التى لا سماحة فيها ولا يسر . ولا راحة فيها ولا لين ، وإنما هى تضييق على الناس حين يغدون إلى اللهو ، وحين يروحون عنه ، وحين يجتمعون على الدعابة وحين يتفرقون عنها . ومن الذى نصبه عليهم يأمرهم

وينهاهم ، ويبيح لهم وينكر عليهم ؟ وماله يتجاوز حدوده ويتدخل في شئون الناس ؟ أليس يكفيه أن يكون صالحاً تقيا ؟ . كان الحارث يسمع هذا الكلام وأمثال هذا الكلام من هؤلاء العابثين فكان يعلم أنه لن يبلغ من نصحه لهم شيئاً . ولكنه يضيع قُوّته عبثاً ، ويفني جهده في غير طائل ولا غناء ، وقد يضطرهم إلى العناد ، فيتمادون في العبث من حيث يريد لهم أن يقلعوا عنه . وكان أشد ما يضايقه أن الدولة تعلم هذا كله عن هؤلاء العابثين . فلا تراقبهم ولا تقاومهم ولا تأخذهم بأقصى ما تملك من الشدة والعنف ، وإنما تعينهم على هذا العبث ، وتمد لهم في هذا المجون ، لأنها ترى في ذلك تقوية لشأنها ، وتثبيتاً لسلطانها ، وصرفاً لهؤلاء العابثين أن ينازعوها الأمر ، وكلهم أو أكثرهم من أبناء المهاجرين والأنصار ، أو من المتصلين اتصالا قويا بأبناء المهاجرين والأنصار . وماذا تريد الدولة من هؤلاء العابثين إلا أن يظهروا لها الطاعة والإذعان . وعليها بعد ذلك أن تكفل لهم لذة الحياة ونعيمها ، وإمتاع نفوسهم وأجسامهم بما تثيره اللذة والنعيم من ضروب الإحساس والشعور . وإذن فليأخذوا من اللذات ما يتاح لهم ، وليؤدوا إليها ثمن هذه اللذة طاعة وإذعاناً . ولتعينهم الدولة على هذه اللذات

بما تدر عليهم من الأموال ، حتى لا يطيعوا ويذعنوا فحسب ، وإنما ليخلصوا لها الحب . ويصفوها مودة قلوبهم وخاصة نفوسهم . فماذا يستطيع الحارث إذن أن يفعل ؟ إنه لا يستطيع أن يُغَيِّرَ من سيرة هؤلاء العابثين شيئاً ، فليس له إلا أن يرى وينكر ، وحسبه هذا الإنكار . على أن الحارث كان يشعر شعوراً خفيا بأن هؤلاء العابثين سيسأمون ما أغرقوا فيه من اللذة . وسيملون ما أسرفوا على أنفسهم فيه من السرور . فهم يستقبلون النهار حين يشرق نوره مغتبطين ، ويستقبلون الليل حين تدلهم ظلمته مبتهجين ، وينفقون ما بين إسفار الصبح وإظلام الليل فى ألوان اللذات ، وينفقون ما بين مغرب الشمس وانتصاف الليل فى صنوف النعيم . وكل شيء مُنْتَهٍ إلى السأم إذا اتصل حتى السرور واللذة ، وحتى السعادة والنعيم . فسيمل هؤلاء العابثون حياتهم هذه ، وسينصرفون إلى التقوى والعبادة والتفكير فى الموت وما وراء الموت ، بعد أن طال انصرافهم إلى اللهو واللعب ، واتصل تفكيرهم فى اللذة والسرور . ومن أجل ذلك لم يفكر الحارث فى أن يقطع ما بينه وبين أخيه من أسباب المودة ، لأنه لم يقطع الأمل فى استخلاصه من حياة اللهو واللعب ، وكان يتودد إليه ، ويتردد

عليه، مقدراً فى نفسه أن يوماً سيأتى قريباً أو بعيداً ، ولكنه آت لا شك فيه — سينصلح فيه أمره ، ويعود إلى الجادة بعد أن طال انحرافه عنها ، وتتصل الأسباب بينه وبين الخير بعد أن طال انقطاع هذه الأسباب . وقد كان عمر يلقى أخاه لقاء حسناً ، ويسمع منه ويقول له حين تتصل أحاديثهما بالدعابة والعبث الحلو أو المر . فإذا اتصلت بالجد الحازم لم يسمع ولم يقل وإنما أعرض إعراضاً وازور ازوراراً . ولكن الحارث يقبل على عمر ذات مساء ، وكان عمر ينتظر هذا المساء أشد ما يكون شوقاً إليه ووجداً به وتلهفاً عليه ، لا ليرى أخاه . فقد كان معه بالأمس ، ولم يبعد عهده به بعد ، ولم يحس الشوق إلى لقائه . ولعله أن يكون مُثْقلا ببعض ما وجهه إليه من نصح ، وما ساقه إليه من إرشاد . كلا . لم يكن عمر مشغول النفس بهذا المساء حرصاً على رؤية أخيه أو شوقاً إلى لقائه ، وإنما كان مشغول النفس بالثريا . فقد كانت قد ضربت له موعداً للقاء فى هذا المساء . وكان عمر قد اهتم لهذا الموعد قبل أن يحين حينه ، هيأ له واستعد لاستقباله وحرص عليه أشد الحرص ، ولم يستقبل ساعة من ساعات اليوم إلا فكر فيما بين هذه الساعة وبين ساعة الموعد من أمد .

وكان يتمثل صاحبته وقد أقبلت عليه باسمة مشرقة الوجه تسعى إليه فى هدوء ظاهر متكلف وهيام خفى مكظوم ، حتى إذا لقيته صافحته وضغط كل منهما على يد صاحبه ، واجتهد كل منهما فى أن يقرأ فى عينى صاحبه ، ثم جلست إلى جواره تحدثه فى رفق أحاديث الحب . ثم تودعه بعد حين طويل أو قصير وقد ضربا للقائهما موعداً آخر يضمر لهما مثل ما أضمر لهما هذا الموعد من حياة كلها ابتهاج ونعيم . كان عمر يفكر فى هذا كله، وكان يتهيأ للقاء الثريا . ولكن الحارث قد أقبل عليه ، وهو يريد أن يصرفه ، ولكن حياءه وأدبه يأبيان عليه ذلك ، ونفسه تنازعه أن يخبره بما بينه وبين الثريا من موعد هذا المساء ، ولو أرسل نفسه على سجيتها لأخبره ، ولاحتمل مرارة هذا الوداع لينعم بحلاوة هذا اللقاء . ولكن لا سبيل إلى أن يخبره بذلك ، وماذا يصنع بحيائه ؟ وماذا يصنع بأدبه ؟ وكيف يلقى أخاه بعد ذلك ؟ فلم يكن بد من أن يحتمل زيارة أخيه . ولكن أخاه لا يكاد يطمئن فى مجلسه حتى ينهض فيخرج من ثياب ويدخل فى ثياب . ويستعد للنوم . وهو يوجه عمر فى حاجة له ، ثم يأوى إلى سرير عمر مسرعاً يتمنى لقاء النوم ، ويشفق كل الإشفاق ألا يلقاه . فقد كان متعباً مكدوداً حقا .

ولم يكد ينزلق فى هذا السرير ، ويضع على وجهه الغطاء . حتى أحس راحةً وهدوءاً ودعة ، ثم أخذ يفقد نفسه قليلا قليلا . وإذا هو مغرق فى نوم هادئ لذيذ . وكان الحارث خليقاً أن يمضى فى نومه هذا الهادئ اللذيذ لولا أن أحس على جسمه شيئاً غضا بضا ، وعلى ثغره شيئاً حلواً لذيذاً حارا لم يتعود أن يجده من قبل . فيفيق من نومه مذعوراً ، ويفتح عينيه فيرى الثريا قد ألقت بنفسها عليه ، وجعلت تقبله ، وهى تظن أنه عمر ، فيصيح بها : اعزبى عنى فلست بالفاسق أخزاكما الله . فإذا تنبهت الثريا إلى أن هذا النائم لم يكن عمر ، وإنما كان الحارث مضت مسرعة لا تمشى على الأرض ، وإنما تمشى فى الهواء . ثم تغلق الباب من دونها ، وتتركه ساخطاً يلعنها ويلعن صاحبها . وإنه لفى ذلك وإذا عمر يُقبل ومعه الثريا لقيته حين انصرفت فأخبرته الخبر ورجعت معه . ويدخل عمر على الحارث فيقول له مداعباً : مالك وللثريا ؟ أتتك مسلمة عليك ، فلعنتها وزجرتها وتهددتها ، وهاهى هذه باكية ، فيقول الحارث . وإنها لهى ؟ فيقول عمر : ومن تراها تكون ؟ فلا يقول الحارث شيئاً، وإنما يكتفى برفع رأسه وهز كتفيه منكراً عليهما هذا العبث وهذا المجون ..

١٠

وما ضاق الحارث بشيء وما سخط على شيء كما ضاق بشعر عمر وسخط عليه . ولم لا ؟ أليس هذا الشعر تمثيلا صادقاً لحياة العابثين فى الحجاز خلال القرن الأول للهجرة ؟ أليس هذا الشعر تصويراً صحيحاً لحياة المرأة العربية اللاهية فى هذا القرن الأول ؟ أليس هذا الشعر وصفاً دقيقاً للصلة بين الرجال والنساء فى هذا العصر ؟ ثم أليس هذا الشعر مرآة لنفس عمر وما تصبو إليه من لذة وما تتهالك عليه من نعيم ؟ وألم ينقطع عمر لهذا الشعر يفسد به عقول الشباب ويدنس به قلوبهم الطاهرة ؟ وهل عرف الشباب الحجازى شاعراً وصف المرأة جملة وتفصيلا بمثل ما وصفها به عمر جودة وكثرة ودقة بنوع خاص ؟ بل هل عرف الشباب الحجازى شعراً أظرف وألطف وأخف روحاً وأحسن موقعاً فى النفوس وأعظم اختلاباً للقلوب والعقول من شعر عمر ؟ فكر الحارث فى هذا كله ورأى أشراف قريش يتحرجون من هذا الشعر ويشفقون من أثره فى الفتيان والفتيات . ويحتاطون فى حماية نسائهم من

روايته والظهور عليه . ورأى فى الوقت نفسه النساء يحببن هذا الشعر ويكلفن به ويـُحـَرِّضْنَ الفتى على قوله حين يترصدنه ويـَتـَعـَرَّضْنَ له . فماذا يفعل الحارث فى هذا الشعر؟ أيتركه ينمو ويزداد ويشيع بين الناس فيؤتى ثمراته المنكرة البغيضة ؟ أم يحاول أن يصرف الفتى عنه فيجنب الناس ما عسى أن يتورطوا فيه بسببه من الخطايا والآثام ؟ ولكنه قد حاول غير مرة أن يصرف الفتى عن هذا الشعر فلم يسمع له ولم يفهم عنه ولم يقبل منه . وإنه ليفكر ويفكر فيخطر له هذا الخاطر : ماذا لو أغرى الفتى بالمال ليصرفه عن قول الشعر ؟ ليجربْ هذه الوسيلة فلعلها أن تنتهى به إلى الغاية التى يريدها . ويخلو الحارث إلى عمر ذات يوم فيحدثه عما لشعره من أثر سيىء فى نفوس الفتيان والفتيات . ويعلن إليه أنه إذا كان ماجناً فلا أقل من ألا يدفع الشباب معه إلى هذا المجون بهذا الشعر الذى يقوله ويدفعه إلى المغنين ، فما أسرع ما تسمعه الآذان وتنطلق به الألسنة وتفسد له الضمائر والقلوب . ويبسم عمر ساخرا لهذا الكلام . ولكن الحارث يمد يده إليه بكيس كبير ممتلىء بالدنانير . ويقول له : خذ هذا على ألا تقول شعراً منذ اليوم . ويفتح عمر الكيس فإذا مال كثير يخلبه ويملأ قلبه بهجة وسروراً .

فينظر إلى الحارث مبتسماً ويسأله : كم؟ فيقول له : ألف دينار . فيعلن عمر قبوله لما يُعرض عليه . ثم ينصرف الحارث وإنه لأسعد الناس بما ظفر به ، فهذا عمر لن يقول شعراً منذ اليوم . ولكن عمر ينظر فيرى أن مقامه فى مكة خليق أن يهيجه على قول الشعر ، فهذه الثريا ما زالت مستأثرة به ، لا تمكنه من الانصراف عنها والزهد فيها . وهى قد تضطره بغموضها إلى الفرار عنها إلى النساء يلتمس فرجاً من حرج ومخرجاً من ضيق . ولكنه لا يفر عنها إلا ليعود إليها أشد ما يكون شوقاً لها وكلفاً بها ورغبة فيها . فهل يستطيع مع هذا كله ألا يقول شعراً ؟ ثم هذا موسم الحج قد كاد أن يقبل ، وهو لم يكن يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامى للجمال ، يتلمس فيه النساء المترفات ، ويكون بينه وبينهن ما يكون من لقاء أو حديث أو مكاتبة ، تعمل رسله فى ذلك فتأتيه المواعيد فى مكة حيناً وفى منى حيناً آخر . فإذا انتهى الموسم شيعهن وقال فيهن الشعر الجيد يسبقهن إلى مواطنهن . وهو قد أقلع عن تلمس النساء فى مواسم الحج منذ أن عرف الثريا ، إلا أن تضطره بغموضها إلى ذلك . ولكن من يضمن له إلا تُرسل إليه الثريا ابتسامة غامضة أو تمد إليه نظرة لا يفهم منها شيئاً ؟ بل من يضمن له

ألا تتعرض له النساء وهن يحببنه ويتهالكن عليه ويحرصن على أن يقول الشعر فيهن ؟ فلم يكن بد من أن يفكر فى رحلة تخرجه من هذه البيئة ، وتصرفه عن قول الشعر . ولكن أواجد هو فى نفسه الشجاعة على السفر إن تهيأت له أسبابه ؟ فليس من اليسير ولا من الأشياء التى يستطيع احتمالها ترك هذه الحبيبة مهما كانت قسوتها عليه ومهما كانت سيرتها معه . وكيف له بتركها وتعريضها لأزمة من هذه الأزمات العنيفة الحادة التى تتعرض لها المرأة حين يهجرها حبيبها وينأى عنها ؟ وهل لهذه الرحلة نتيجة بالقياس إليه إلا الوحدة المظلمة والعزلة المؤلمة والحياة القاتمة التى يحياها وهو يائس من ماض لا سبيل إلى عودته ، ومنتظر مستقبلا أيسر ما يقال فيه : إنه الضعف والعجز والفناء والموت ؟ فما ينبغى إذن أن يفكر فى الرحلة فإنه لا يفكر فيها إلا امتلأت نفسه حزناً . وامتلأ قلبه منها رعباً ، وامتلكه جزع يفسد عليه أمره كله وينغص عليه حياته كلها . وإنه لفى ذلك وإذا الثريا تقبل عليه فتجعل هذه الرحلة أمراً لا مفر منه ، فإنها لم تكد تجلس إليه حتى حدثها بما كان بينه وبين أخيه الحارث ، وبما أخذ يفكر فيه من الرحيل . ولا تكاد الثريا تسمع أنه قد فكر فى الرحيل حتى تقول له : فأنت

تبيعنى إذن بهذه الدنانير التى أعطاها لك أخوك؟ ثم تعلن مغاضبتها له . وتنصرف عنه وإنه لضيق أشد الضيق بهذه الحياة التى يحياها ، والتى لا يعرف أسعيد هو فيها أم شقى؟ فما أكثر ما تحمله الثريا على الرضا والسخط . وعلى اللذة والألم ، وعلى النعيم والبؤس ، وعلى الظفر والحرمان . ولا بد له أن يستريح من هذه الحياة وقتاً ما . مهما كان الأمر ومهما كانت النتائج . وإذن فلا بد من الرحيل . ولكن إلى أين؟ هنا يخطر له أن يرحل إلى اليمن . فهناك فى «لَحْج» تقيم أخواله . فماذا عليه لو خرج فأقام عندهم ما شاء الله له أن يقيم؟ لا شىء . وما هى إلا أن يتهيأ الفتى للرحلة ويتهيأ أيضاً لفراق الثريا . وكان خليقاً أن يذهب إليها فيُوَدِّعَها قبل سفره . فقد يكون فى ذهابه إليها بعض الخير ، حين تتصل عيناه الحادتان بوجهها الجميل فتطبعان صورته الحلوة الرائعة فى نفسه فتكون له رفيقاً مؤنساً فى سفره هذا الشاق الطويل . ولكنه لم يفعل . لأنه يعرف أنه إن ذهب إليها فسوف تترضاه ، وتعلن إليه حبها ووفاءها وتنكر عليه تفكيره فى الرحيل . وهو سيعلن إليها ضيقه بهذه الحياة التى يحياها ، وأنه فى أشد الحاجة إلى شىء من الراحة لنفسه المعذبة ، وإلى قليل من الاطمئنان لقلبه المضطرب .

وهذا من غير شك سيحملها على أن تبره وترفق به وتتلطف له وتعطف عليه . وهو يخشى أن يضعف أمام ما تظهر له من هذه العواطف فيبقى وهو يريد الرحيل . ولو أنه كان واثقاً أن تجنبه الثريا بعد ذلك قسوتها ومغاضبتها وهذه الأشياء التي تنغص عليه حياته ، لرجع عما اعتزم من الرحيل . ولكنه يعلم عجزها عن ذلك . فليستعد إذن للرحلة والفراق . وهو يعلم أن الفراق مؤلم . أليس يشعر بالألم ؟ أليس سيشعر به أثناء سفره ؟ ولكن لابد من احتمال الألم إذا لم يكن عنه منصرف . وما أشرقت الشمس وما ارتفع الضحى حتى كان عمر قد بدأ طريقه الطويلة إلى غايته البعيدة . وانتهى النبأ إلى الثريا فلم تظهر ارتياعاً ولا التياعاً . ولم تصعد من صدرها زفرة ، ولم تنحدر من عينها عبرة . ولم يفارق وجهها هدوؤه وانبساط أساريره . ولم يفقد صوتها اطمئنانه وعذوبته . ومع ذلك فقد كانت نفسها تبكي بكاء مرا ، وكان قلبها يشكو شكاة الطائر المهيض . ولكن أصداء هذا البكاء وهذه الشكاة لم تكن تتردد إلا في أعماق الضمير . لقد كانت ثابتة للخطب مطمئنة له لأنها واثقة أن صاحبها يحبها . وأنه لا ينصرف عنها إلا ليعود إليها أشد ما يكون شغفاً وكلفاً ، وشوقاً وهياماً ، ورغبة وحنينا .

وكانت مطمئنة إلى أن صاحبها سيطرب يوماً فيقول الشعر ، على الرغم من هذه الدنانير الألف التى أغراه بها الحارث . ذلك لأن الشعر إنما ينتجه الشاعر ، لا لأنه يريد أن ينتجه ، وإنما لأنه مضطر إلى إنتاجه اضطراراً ، بحكم هذه الملكة الفنية التى فطره الله عليها . فهو يصدر عنه كما يصدر التغريد عن الطائر الغرد ، وكما ينبعث العرف من الزهرة الأرجة ، وكما ينبثق الضوء من الشمس المضيئة . ولعلها سخرت من الحارث حين أغرى عمر بالمال ليترك الشعر . ولعلها سخرت من عمر أيضاً حين ظن أنه قادر على ترك الشعر . وكانت الثريا محقة فى سخريتها من الحارث ومن عمر جميعاً . فهذا عمر يطرب ذات يوم فيقول قصيدته التى فيها :

ما أنس لا أنس يوم الخَيْفِ موقفَها
وموقفى وكلانا ثَمَّ ذو شجن
وقولها للثريا وهى باكية
والدمع منها على الخدين ذو سُنَن
بالله قولى له فى غير مَعْتَبَةٍ
ماذا أردتَ بطول المكث فى اليمن

إن كنتَ حاولت دنيا أو ظفرت بها
فما أخذتَ بترك الحج من ثمن

وتسير هذه القصيدة حتى يسمعها الحارث ، فيقول : هذا والله شعر عمر . قد فتك وغدر .

١١

وأقبل عمر من اليمن . فأقبلت عليه وفود من عِلْيَةِ قريش وأصحاب المكانة فيها ، فسلموا عليه ، وجلسوا إليه ، فتحدثوا معه ألواناً من الحديث مختلفة متباينة ، تدور كلها حول ما جدَّ من الأمور فى مكة منذ أن رحل عمر عنها إلى أن عاد إليها . ولعلها دارت أيضاً حول ما رأى عمر فى اليمن وما عرض له من الأمور وما ألم به من الأحداث . ويظهر أن هذه الأحاديث قد طالت حتّى انتهى النهار وأقبل الليل وهى لا تريد أن تنتهى . وكأن واحداً من الحاضرين قد ضاق بها وأراد أن يفرغ منها فطلب إلى عمر أن يدعو لهم بعض إمائه يغنين ويرقصن ، فما أنفق الليل فى خير من الغناء والرقص . ودق عمر يدا بيد ، فأقبلت جارية حسناء تسأله ماذا يُريد ؟ فطلب إليها أن تتهيأ هى وبعض الجوارى ليرقصن ويغنين له ولأصحابه . وما هى إلا لحظات حتّى فتحت الأبواب وانفرجت الأستار وأقبل الجوارى حساناً صباحاً يرقص ويغنين ويطربن الحاضرين . وليس من شك فى أنى لم أشهد هذا الرقص ولم أسمع هذا الغناء

ولم أرَ طرب الحاضرين بهذا الرقص وهذا الغناء . ولكن ليس من شك أيضاً فى أن هذا الرقص كان رائعاً بارعاً ، وفى أن هذا الغناء كان جميلا فاتناً ، وفى أن الحاضرين لم يطربوا لهذا الرقص وهذا الغناء وإنما سُحِرُوا سحراً ليس فوقه سحر . فقد كان الجوارى يغنين فى شعر عمر وهن يرقصن ، فكانت حركاتهن الأنيقة الرشيقة تمازج أصواتهن العذبة الرخيمة . وهى تنطلق بهذا الشعر الجميل الرقيق . وكان هذا الرقص يصور فى حركاته هذه العواطف المختلفة التى يصورها فى أصواته هذا الغناء العذب . ويصورها فى ألفاظه هذا الشعر الجميل ، فكانوا يرون هذه العواطف مصورة فى الحركات والصوت واللفظ جميعاً ، فكانوا لا يشكُّون فى أن هذا الرقص وهذا الغناء وهذا الشعر ، كل هذا قد اجتمع ليصور عواطفهم أصدق تصوير وأدقه ، فقد لا يتاح للحركات وحدها ، ولا للأصوات وحدها ، ولا للألفاظ وحدها ، أن تصور هذه العواطف ، وإنما يتاح لها أن تصور هذه العواطف إذا اجتمعت كلها وتعاونت كلها على تصويرها .

ثم تقبل الثريا على عمر فلا تكاد تراه حتى تلقى بنفسها بين ذراعيه وهى تقاوم شوقاً لم يلبث أن استحال إلى دموع غلاظ

تحدرت على خديها كأنها لؤلؤ العقد قد خانه النظام . ويضمها عمر إليه ويقبلها تقبيل الوامق المشوق ، ولا يستطيع هو الآخر أن يحبس الدموع فتنهمر من عينيه انهماراً . فلما أفاقا وهدأت نفساهما شيئاً ، واستقر قلباهما فى صدريهما قليلا ، قالت له : أهكذا تترك ثرياك العزيزة ووطنك الحبيب ؟ فماذا أزعجك عنى ؟ وماذا أخرجك من وطنك وأنت تحيا فيه حياة ناعمة وتعيش فيه عيشاً باسماً ؟ ما كنت أحسب أن فراقى يهون عليك إلى هذا الحد ؟ وأن نفسك تتجافى عن وطنك على هذا النحو ؟ وهم عمر أن يجيب . ولكن الثريا لم تمهله ، وإنما قالت له : أهكذا ثقل عليك حبى . وضاقت نفسك بى ، فانتزعت نفسك منى ومن وطنك انتزاعاً ؟ قال عمر وهو يضمها إليه : فوالله ما ثقل علىّ حبك ولا ضاقت نفسى بك ، وإن مكانك منى بحيث تعلمين ، فأنت سعادتى ونعيمى ، وأنت أملى ورجائى فى هذه الحياة ، ولكنك تكلفيننى ما أطيق ومالا أطيق بمغاضبتك لى وقسوتك علىّ وبما تتركين فى نفسى وأمام عقلى من ألغاز وأسرار لا أستطيع أن أنفذ إلى أعماقها ، وبما تثيرين حولك من غموض يحجب نفسك عنى ، فأحاول أن أصل إليها فلا أبلغ من ذلك شيئاً ، وإنما أجاهد وأجاهد ثم لا أكاد

أقرب من الغاية حتى تبعد عنى ، وكأنها تفر منى ، فأنا فى جهاد متصل وطموح مستمر . وأظنك تبيحين لمن تكلف هذا الجهد واحتمل هذا العناء أن يفكر فى الرحلة لا يريد القطيعة ، وإنما يريد الفرار إلى حيث يستريح ويستجم ، ثم يستأنف الجهاد والطموح . وتهم الثريا أن تجيب ، ولكنه يمضى فى حديثه قائلا : وكنتُ فى أثناء هذه الرحلة التى بعدتُ فيها عنك ، أغالب الشوق إليك فأغلبه حيناً ويغلبنى أحياناً ، وأصارع الحنين إليك فأصرعه حينا ويصرعنى فى أكثر الأحيان. ولولا أنى وجدتُ من أخوالى ومن بعض من لقيت من الناس ، ومن هذه الطبيعة المشرقة الباسمة المتألقة ما كان يشغلنى عن نفسى ويصرفنى عما كان يتنازعنى من العواطف والأهواء ، لانتهى بى الأمر إلى مالا أحب . وقد رجعتُ إليك مستسلماً لحبك مذعناً لسلطانك واستجبت لدعاء الحب فألقيت نفسى فى ناره المضطرمة فوجدت فى الاحتراق بهذا الجحيم نعيما أى نعيم . ثم ينعطف إليها فيقبلها ويضع خده على خدها ، وينعمان معا بساعة حلوة لذيذة . فإذا انصرفت الثريا وخلا عمر إلى نفسه جعل يسأل نفسه عن هذه الفتاة القادرة الساحرة التى لم يكد يجلس إليها حتى ضعف وتهالك وترك نفسه لها تصرفها كما

تريد ، وتترك أمره لها تدبره كما تهوى ، وكأنه أمام قوة قاهرة لم يستطع لها مقاومة ، فاستسلم لها مذعناً مقهوراً . وهى على ذلك تستجيب له فى بعض ما يريد كما تستجيب الأمة الخاضعة للسيد المتسلط ، فلا يزيده هذا إلا حيرة وغيظاً ، وإذا هو يريد أن يعرف : ما هذه النفس الغامضة التى تنغص أيامه وتؤرق لياليه ؟ أتمتاز هى عن نفوس النساء بشىء ؟ أم أنها نفس امرأة لا أكثر ولا أقل ، ونفوس النساء ألغاز لا تحل وليالى لا تنجلى وأسرار لا يظهر عليها أحد . وتلح هذه الخواطر على عمر وتستأثر به فيخرج كئيباً محزوناً ، يلتمس راحته فى امرأة يتحدث إليها ، أو فتاة يلهو معها ، فلا يكاد يتقدم به المسير شيئاً حتى يلقى فى طريقه كلثم بنت سعد .

١٢

وكانت كلثم بنت سعد هذه فتاة مخزومية من قريش ، وكانت فى ريعان شبابها ، قد أوتيت من الجمال والفتنة حظا عظيما ، وكانت إلى جمالها وشبابها شديدة الذكاء ، كثيرة العلم ، قوية الإرادة إلى حد غريب ، شديدة السلطان على نفسها ، تشعر بالشيء العنيف ، وتتأثر بالعاطفة الحادة ، ولكنها تخفى هذا كله على الناس فلا يحسونه ولا يشعرون به . وقد تستطيع أن تخفيه على نفسها . وقد رأت عمر بن أبى ربيعة فأحبته وكلفت به ، ولكنها لم تفكر فى الزواج منه . أو قل إنها فكرت فى الزواج منه ، ولكن عقلها لم يوافق على هذه الفكرة آخر الأمر . فعمر بن أبى ربيعة فتى جميل قوى ماجد ولكنه يتخذ له صاحبة هى الثريا ، وهو لا يكتفى بهذه الصاحبة وإنما يحوم حول كل فتاة يراها رائعة ، فهو مسرف فى اللذة متهالك على اللهو مفتنٌ فى ضروب المجون ، فهو لا يصلح أن يكون لها زوجاً ، أو قل إنه لا يصلح أن يكون زوجاً . هى إذن

يائسة من الزواج منه ولكنها تحبه فيجب أن تقاوم هذا الحب . ولكن نفسها تنزع إليه فيجب أن تحارب هذه النفس وتلزمها أن تطمئن إلى ما هى فيه من حياة الوحدة . وحسبها جواريها يُسَلِّينَهَا ويغنين لها ويطرفنها بغرائب الأنباء وعجائب الأخبار . ولكن عمر قد رآها ، فأعجبه جمالها ، ولم يجد بأساً فى أن يتحدث إليها ، ويتحدثَ إليها فى الحب . ولكنه لا يكاد يذكر لها الحب حتى تعلن فى شدة وعنف أنها تكرهه وتنفر منه كل النفور ، لأنه مصدر ألم لا حد له ، ثم تتركه ولا تسمع لحديثه وكان عمر خليقاً أن ينصرف عنها كما انصرفت عنه . ولكنه يريد أن يلهو ، وأن يمضى فى هذا اللهو إلى أبعد حد ممكن . فيرسل إليها جارية من جواريه هؤلاء اللائى يحسنّ الحديث ويعرفن مداخل القلوب . ولكن هذه الجارية لا تكاد تتحدث إلى كلثم عن عمر حتى تغضب ، وتأمر الجارية أن تقطع هذا الحديث وأن تخوض فى حديث غيره . ولكن الجارية تحاول أن تتم الحديث ، فتثور كلثم عليها وتضربها ، ثم تطردها ، وتحذرها أن تعود إليها مرة أخرى . ولكن عمر يغرى الجارية بالعودة إلى كلثم ومحاولة الحديث إليها ، فقد يمكن أن تصل معها إلى ما لم تصل إليه من قبل . وتذهب الجارية إلى

كلثم فلا تكاد تراها حتى تقول لها : فقد بعثك عمر بن أبى ربيعة إلىَّ وأطعته وأقبلت علىَّ أيضاً ؟ فتقول لها الجارية : نعم يا سيدتى بعثنى عمر إليك ، ولم أستطع أن أخالف عن أمره . ومتى خالفت الجارية عن أمر سيدها ؟ هنالك تثور كلثم ثورة هائلة ، فإذا هى مجنونة أو أكثر من المجنونة ، لم يمتقع وجهها ولم تظهر عليه آثار الغضب ، وإنما اضطرب دمها وغلا حتى يكاد يخرج من عينيها ، وإذا لسانها منطلق بأشنع الألفاظ ، وإذا صوتها قد بلغ أقصى ما يمكن أن يبلغ من الارتفاع ، وإذا هى تريد أن تبطش بالجارية . وقد أسرعت إلى الجارية فضربتها وخنقتها ثم دفعتها دفعاً إلى خارج الدار . وتتحدث الجارية إلى عمر بكل هذا . ثم لا تلبث هذه الأنباء أن تشيع فى الناس ، وإذا رسل عمر يأبون كل الأباء ويرفضون أشد الرفض أن يذهبوا إلى كلثم وأن يبلغوها رسالة ما . ولكن هذا كله يغرى عمر بها ، وإذا هو يذهب إلى سوق الرقيق فيبتاع جارية سوداء لطيفة رقيقة عذبة اللفظ حلوة الحديث فيكرمها ويحسن إليها ، ويكتب إليها رسالة ويقول لها : إن أوصلت هذه الرسالة إلى كلثم فأنت حرة ، وعلىَّ أن أيسر لك العيش طول الحياة . وتحتال الجارية بكل الحيل . وتتوسل

بكل الوسائل حتى تبلغ رسالة عمر إلى كلثم . وتأخذ كلثم الرسالة فتقرؤها فإذا فيها قصيدته :

من عاشق صب يسرُّ الهوى قد شفَّه الوجد إلى كلثم

فإذا قرأت كلثم هذه الرسالة قالت للجارية : إنه كاذب مخادع يريد أن يصل منى إلى ما يريد ، ثم يهجرنى وينسانى . وهو لا يحبنى وإنما يشتهينى . وتؤكد لها الجارية : أنه يحبها ، وأنه صادق فى حبه . وتستطيع الجارية أن تقنع كلثم بأن عمر يحبها ، فتقول لها كلثم : وأنا أعلم حقا أنه يحبنى ، وأستطيع الآن أن أقول : إنى أحبه أيضاً . ولكنى لم أشعره قط بهذا الحب . ولقد حاولتُ كثيراً أن أمسك نفسى وأن أذود عنها وأن أحميها من السقوط فى هوة الحب . ولكن يظهر أن النساء جميعاً غنيمة ولو مرة واحدة فى الحياة لهذه الجذوة الملتهبة الضرورية جذوة الحب . قالت الجارية : إنك يا سيدتى امرأة متكبرة قوية الإرادة تقاومين وتمانعين هذا الألم اللذيذ . ومع أنك كتمت الأمر ولم تتحدثى إلى عمر بشىء . فإن لحاظك قد فضحت هذا السر . قالت كلثم للجارية : ماذا تقولين ؟ قالت الجارية : فإن عمر يعرف أنك تلتهمك جذوة الحب . ولكنك تجاهدين وتمانعين . وقد حدثنى فيما حدثنى .

أنك وإن كنت تنكرين الحب إلا أنك تصطلينه . قالت كلثم : إذن فاذهبي إلى عمر فأنبئيه بأنى لا أجد بأساً فى أن يزورنا هذا المساء .

ويقبل عمر على كلثم مع الليل ، ويمكث عندها شهراً كاملا — فيما يحدثنا الرواة — لا يعلم أهله أين هو ؟ ولا تعرف الثريا أين ذهب ؟ حتى إذا استأذن فى الخروج قالت له : بعد أن فضحتنى ؟ لا والله لا تخرج إلا بعد أن تتزوجنى ، فتزوجها وولدت له ولدين : أحدهما ولده جوان .

١٣

تورط عمر إذن فى زواجه من كلثم بنت سعد ، ولولا أنه تورط وأقام عندها شهراً ما تورط فى هذا الزواج . وكذلك الناس يلهون ويعبثون فيورطهم لهوهم وعبثهم فى أشياء ، لها فى حياتهم أكبر الأثر وأعظم الخطر . ولو أن عمر كانت له إرادة حقا فى الزواج لتزوج من الثريا صاحبته ، هذه التى يختلف إليها ويجشم نفسه الأهوال فى سبيلها . وما أدرى أكانت الثريا تطمع فى الزواج من عمر ؟ أم كانت تكتفى منه بهذا الحب ؟ وما أدرى أيضاً أكان عمر يعرض لها بالزواج ويشير إليه فى أحاديثه معها ؟ أم كان يكتفى بحديث الحب ؟ ولكنى أعلم أن الثريا لم تكد تعلم أن عمر قد تزوج من كلثم حتى جزعت جزعاً شديداً . وعرف عمر هذا الجزع ، أحسه فى نفسه لأنه يعلم مقدار حب الثريا له ، وعرفه من صديقاتها المتصلات بها والمتصلات به أيضاً . ومن يدرى ؟ فلعله قد تسمع عليها واحتال فى استراق حديثها . وما يمنعه أن يدور حول بيتها كما كان الأحوص يدور حول بيت أم جعفر ، وينتهز لذلك فرصة

الليل . فيحاول أن يسترق السمع ويختلس بعض ما يتصل من ،
حديث ؟ ومهما يكن من شيء فقد عرف عمر أن زواجه من
كلثم كان له فى نفس الثريا أكبر الأثر وأعظم الوقع . وهو
يصور ذلك فى قصيدته :

أخبروها بأنى قد تزوّجـ ـتُ فظلت تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختهـــا ولأخرى جزعاً ، ليته تزوج عشرا
وأشارت إلى نساء لديهـــا لا ترى دونهن للسر سترا
ما لقلبى كأنه ليس منى ؟ وعظامى أخال فيهن فترا
من حديث نمى إلىَّ فظيع خلت فى القلب من تلظيه جمرا

وليس من شك فى أن عمر قد فكر من أول يوم تمَّ فيه
زواجه من كلثم أن يستأنف صلته بالثريا . فهو إنما يهزل
فى هذا الزواج ولكنه لا يهزل فى هذا الحب . ومتى هزل الناس
فى الحب ؟ وكان من أجل ذلك يهيىء نفسه ليعود أدراجه إلى
حيث الحب وما يمكن أن يستتبع من نعيم أو بؤس ومن سعادة
أو شقاء . وكيف لا يستجيب لنداء قلبه وهو يحيا مع زوجه
حياة لا يعرف كيف يصفها ولا كيف يسميها ؟ فقد كان
يحس بأنه لا يحب بيته ، وإنما يحب هذا البيت الذى ترك
قلبه فيه ، هنالك فى ذلك البيت الجميل الذى تعيش فيه هذه

الفتاة المترفة التى تسمى الثريا . فى هذا البيت ترك عمر قلبه .
وهو من أجل ذلك لا يعرف كيف يحيا بعيداً عن هذا البيت ؟
فهو يفكر فى الرجوع إليه ، واستئناف الصلة به . إلى هذا
البيت يريد أن يلجأ ، وفى ظله يريد أن يعيش ، وعند صاحبته
يريد أن يلتمس الراحة لنفسه المعذبة والشفاء لقلبه المريض .
ولكن ما خطبه وما خطب الثريا إن رَأتْهُ فأنكرته، ثم أبت أن
تفتح له بابها ، وأن تلقاه بما يُحب أن تلقاه به من الرضى
والعطف والابتسام؟ ما خطبه وما خطب الثريا إن سألته :
أين كان ؟ كيف يجيبها ؟ وبم يجيبها ؟ أيقص عليها أمره مع
كلثم وهى تعرفه ؟ أم يطويه عنها ولا فائدة من طيه ؟ وكيف
يعتذر إليها عن زواجه من كلثم ؟ بل كيف يرفع طرفه
إليها ويحدق النظر فيها بعد أن خانها هذه الخيانة ؟ إنه ليستحى
أن يذهب إليها ، وإنه لا يجد القوة على أن يلقاها . ولكنه مع
ذلك لا يجد القدرة على البعد عنها، ولا يعرف كيف يحيا بدونها؟
ومن أجل ذلك فلا بد أن يقبل عليها ، وأن يفضى إليها بأمره
كما وقع . فينبئها بأنه قد تورط فى زواجه من كلثم ، وأن هذا
الزواج إن دل على شىء فإنما يدل على أن هناك شيئاً فوق
الأشياء يدبرها ويسخرها ، وفوق الناس يسيطر عليهم ويدبر

أمورهم . وهذا الشيء هو القضاء . القضاء الذي يعبث بعقول الناس وقواهم . ويعبث بسلطانهم وإرادتهم ، ويقول كلمته فتفسد عليهم ما دبروا . وتنقض ما أبرموا . وتلزمهم أن يعترفوا بضعفهم وقصورهم وغرورهم ، وبأنهم عاجزون مهما بلغوا من العقل والذكاء ومن الرقى والحضارة أن يضمنوا لأنفسهم السعادة ويحموا أنفسهم من الشقاء . نعم ينبئها بهذا كله ، وينبئها مع هذا كله بأنه مريض قد أقبل يلتمس العناية والعلاج . فهو – وإن تزوج من كلثم واعتبرت هي هذا الزواج خيانة لها – إلا أن هذه الخيانة ليست في حقيقة الأمر إلا لوناً من ألوان الضعف وضرباً من ضروب العلة ، لم يتعمدها تعمداً ، وإنما تورط فيها تورطاً ، واضطرته إليها أسباب قاهرة لم يجد إلى التخلص منها سبيلا . فهو خليق بأن تعطف عليه وتعنى به وتطبَّ لدائه وعلته ، وهذا العطف ليس تشجيعاً له على خطيئته ، وإنما هو فهم لها وإدراك لأسبابها ، ومعرفة لضعف الإنسان وغروره ، وعمل على إصلاحه لا على الانتقام منه . وإنها لأدرى الناس بعلته وأقدرهم على علاجه .

وهو يقبل عليها فلا تكاد تراه حتى تضطرب . وإذا هو محزون يدافع عبراته ، ولا يكاد يثبت على قدميه ، ولا يكاد ينطق

بتحيتها . وهى متأثرة ، ولكنها تتجلد وتتكلف القوة ، فتحييه
تحية فاترة ، ويجلس . فتسأله : ما خطبه ؟ وماذا يريد ؟
فيحاول الكلام . ولكن لسانه معقود ، وشفتيه مقفلتان . لم
يتح للسانه أن ينطلق بشىء ، ولم يتح لشفتيه أن تنفرجا عن
شىء . وإذا هو يبحث عن الكلام الذى كان قد أداره فى
نفسه ، وكان يريد أن يقوله لها . وعن هذه الألفاظ الحلوة
التى كان يريد أن يرسلها إلى نفسها الثائرة وقلبها المكتئب .
ولكنه لا يجد فى نفسه شيئاً . فقد أنسى كل شىء . ثم يتاح
لهذا اللسان المعقود أن ينطلق ، ولهذا الفم المطبق أن ينفتح ،
وإذا هو يعلن إليها ندمه وألمه . وما يحمله هذا الندم من أثقال
وما يجشمه هذا الألم من أهوال . ولا يكاد عمر يستمر فى
حديثه حتى تشعر الثريا بأنه لا يستطيع أن يعيش بدونها
حقا . وقد بلغ بها التأثر أقصاه ، وفقدت كل قوة ، فهى
تضمه إليها . وهو محزون ولكنه سعيد بين ذراعى حبيبته .
وإذا هذه الحبيبة التى كانت ترى نفسها قد أهينت ، وترى
صاحبها قد خانها ، وكانت تريد أن تكون كريمة أبية ، وأن
تقطع الصلة بينها وبين هذا الخائن ، لا تستطيع أن تقطع

صلتها به ، لأن سلطان الحب عليها أقوى من سلطان الكرامة .
وقد استطاع عمر أن يخرج بعد أن تم له رضا صاحبته ، وضربت له موعداً للقاء .

١٤

ويرجع عمر من عند الثريا ذات يوم فيلقى فى طريقه صديقه ابن أبى عتيق . فإذا سأله ابن أبى عتيق : من أين ؟ قال : مِنْ عندها . قال ابن أبى عتيق : من عند الثريا ؟ قال عمر : فتريد مِنْ عند مَنْ إذن ؟ قال ابن أبى عتيق وهو يبتسم : من عند كلثم زوجك . هنالك ينفجر عمر فى حزن شديد ويقول لابن أبى عتيق : إنى لمجرم أيها الصديق لأنى لا أحب امرأتى ، وإنما أحب صديقتى وعشيقتى الثريا . لقد تورطتُ فى الزواج من كلثم . وكنتُ أظن أنى سأخلص بهذا الزواج من حب الثريا ، فلم أزد إلا إيغالا فى حبها ، وإلحاحاً فى الهيام بها وإمعاناً فى الحرص عليها . إنى لأحيا مع امرأتى أيها الصديق حياة كلها كذب ونفاق ، وأنا لا أستطيع أن أمضى فى هذا الكذب والنفاق . قال ابن أبى عتيق وهو يألم لما انتهى إليه حال صديقه : هوّن عليك أيها الصديق ، ولا تغل فى الحزن ، ولا تسرف فى التشاؤم فالحياة فيها الخير والشر ، ونحن مضطرون إلى أن نحتمل الحياة على ما فيها من خير وشر ،

دون أن نجد السبيل الواضحة إلى اتقاء الشر أو الاستزادة من الخير . نحن مضطرون إلى أن نحتمل الحياة كما هى وإلى أن نؤمن بأن ما فى الحياة من خير وشر ليس مصدره الحياة وإنما مصدره نفوسنا نحن . مصدره هذه النفوس التى تجهل نفسها ، فيضطرها هذا الجهل إلى أن تخطئ مرة وتصيب أخرى ، فتسعد حيناً وتشقى حيناً آخر . قال عمر : فإن الإنسان إذن عاجز مهما يفعل ومهما يبالغ فى الحيلة عن أن يحقق السعادة ويظفر بها كما يحب ويرضى ؟ قال ابن أبى عتيق : نعم أيها الصديق ، ولكن الإنسان مغرور يثق فى نفسه ويؤمن بأنه قادر على أن يصلح من حاله ويخفف من آلامه ، وهو فى حقيقة الأمر يجهل نفسه جهلا تاما ، وهو يجهلها أشد الجهل حين يعتقد أنه يعلمها أشد العلم ، فلا تسرف فى الإيمان بنفسك ، واحتمل الحياة على ما فيها من خير وشر . ويستأذن ابن أبى عتيق بعد أن يكون قد خفف عن صاحبه بعض ما هو فيه . وينصرف عمر إلى بيته ، فلا يكاد يلج بابه حتى تقبل عليه كلثم فرحة مرحة مبتهجة تريد أن تلقى بنفسها بين ذراعيه ، فيبسط لها عمر ذراعيه ويضمها إليه ويقبلها ، ثم يجلسها إلى جانبه ، وينظر إليها نظرة غامضة لا تفهمها ،

فتقول له : ماذا تريد أن تقول ؟ فيقول لها : أريد أن أقول : إنى أحبك . فتقول له فى دعابة ومكر : فما هكذا كنت تريد أن تقول . فيقول لها : فماذا كنتُ أريد أن أقول إذن ؟ فتقول له : لا أعرف . ولكن حسبى أن أفهم أنك لم تكن تريد أن تقول هذا ، ثم توجه الحديث وجهة أخرى فتسأله : أين كنت ؟ فيقول لها : وأين أكون إلا عند صديقى ابن أبى عتيق . نلهو فى هذا السخف الذى نلهو فيه كل يوم . وتفهم هى أنه يكذب عليها ، ولكنها تتظاهر بالسذاجة ، وتظهر له أنها تصدقه وتثق به ، حتى إنه ليسخر منها فى نفسه ، ولكنه يحدثها عن حبه لها وكلفه بها ويقول لها : ما أظن أنك تحبيننى كما أحبك ؟ فتجيبه فى سذاجة متكلفة واطمئنان مصطنع : إنها تحبه أكثر مما يحبها . ولذيذ جدا هذا الحديث ؛ لأنه يمثل هذا النفاق الشنيع بين امرأة تعرف أن زوجها يحب غيرها ، وتريد أن تحدثه بما تعرف، ولكنها تحبه وتخشى أن تسوءه إن حدثته بما تعرف . ويضطرها هذا الحب إلى أن تظهر ثقة لا حد لها ، فهى تلهو وتمزح معه فى سذاجة واطمئنان مصطنعين . وهو يخدعها ويخونها ويكذب عليها ويمعن فى الكذب ويتكلف مع ذلك أن يلهو وأن يداعب . وهى تعلم

أنه يخدعها وأنه يتكلف ما يتكلف من اللهو والمداعبة ، ولكنها لا تظهر له شيئاً ينم عن معرفتها لذلك . فإذا أقبل الليل تهيأ عمر للخروج ، فتسأله زوجه : إلى أين ؟ فيقول لها : إلى ابن أبي عتيق ، فقد ضرب لي موعداً أن ألقاه الليلة في المسجد الحرام ، وتحس كلثم أن عمر يكذب عليها وأن بينه وبين الثريا موعداً لابد أن يكون ذاهباً إليه . فتحاول أن تمنعه من الخروج وأن تحول بينه وبين الذهاب إلى هذا الموعد . ولكن عمر ينبئها بأنه ذاهب إلى الموعد الذي ضربه له صديقه ، وليس من سبيل إلى تَخَلِّيهِ عن هذا الموعد . وتلح كلثم في أن تصرفه عن ذلك ، فما أسرع ما تشعر بأنها لن تصل منه إلى شيء . فلا تسل عن دهشتها ولا عن ذهولها ولا عن حسرتها وألمها . ولكن ما أسرع ما تملك نفسها فتقف هادئة بل مبتسمة ، كأنها لم تفهم شيئاً . وتطلب إلى زوجها أن يقبِّلها قبل أن يخرج ، فيقبلها ، وكلاهما متكلف : أما هو فيتكلف الكذب والخديعة ، وأما هي فتتكلف الصبر والجلد ، وفي الحق أنه لم يكن أقل منها حزناً ، ولكنه عن حزنه مشغول ، فهو لا يفكر إلا في صاحبته ، وقد تركت كلثم زوجها يخرج وإنها لتفكر في أن تستحوذ عليه ، وهي لا تعرف كيف تستحوذ عليه ولكنها تعلم أنها مقدمة على أمر عظيم .

١٥

وقد فكرت كلثم فى أن تلقى الثريا ، وأن تضع حدا للصلة بينها وبين زوجها ، فذهبت إليها ذات يوم فلقيت عندها نسوة من قريش . فلما انصرف هؤلاء النسوة وخلت المرأتان كان بينهما موقف مؤثر ؛ ذلك أن كلثم تتحدث إلى الثريا فى صراحة مخالفة لما ألف الناس من ذوق وتقليد ، فتزعم لها أنها تحب زوجها حبا شديداً ، وأن زوجها يُحبها حبا شديداً أيضاً ، وأن من الاثم أن تعمدَ امرأة مهما تكن إلى هذا الحب فتسىء إليه . أما الثريا فتسمع هذا الكلام مبتسمة لا غاضبة ولا حانقة ، وتعلن إلى كلثم أنها تعرف عمر قبل أن يعرفها ، وأن الحجاز كله يعرف أنها صاحبته . ولكنها مع ذلك تُهَوِّنُ على هذه المرأة المسكينة فى شىء من السخرية مر شديد المرارة . ثم تظهر من العطف عليها والرفق بها ما يملأ قلبها اطمئناناً . ثم تبالغ الثريا فى هذا فتتخذ كلثم صديقة لها ، وتهدى إليها هدية قيمة من كسوة وألطاف ، وهما إذن صديقتان . وقد أمنت كلثم كل مكروه . ولكن أمد هذا الأمن ليس طويلا ،

فقد خرجت كلثم تراقب زوجها ذات ليلة ، فإذا هو ينتحى ناحية فى الصحراء ، وإذا هو يذهب ويجىء كأنه ينتظر أحداً . على أن انتظاره هذا لم يدم طويلا . فهذه الثريا قد أقبلت . وهاهى هذه تتقدم إليه ، وها هو هذا يدنو منها فيفتح لها ذراعيه ، وهى تلقى بنفسها بينهما فيضمها ويقبلها . وتنكر كلثم ما رأت ، وتهم أن تقفل راجعة وتترك هذين العاشقين يستمتعان بما أتيح لهما من نعيم ، ولكنها تستكثر على نفسها أن تشقى وينعم هذان العاشقان . وإذا هى تتقدم إليهما فيكون بينها وبينهما موقف مؤثر شديد التأثير . فانظر إليها مغضبة ساخطة قد استطاعت أن تضطر هذين العاشقين إلى أن يسمعا منها كل ما تريد أن توجه إليهما من سب ولوم . ثم انظر إليها قاضية تأخذ بالعدل وتريد أن تعرف ما قدر لها بين هذين العاشقين . فهى أيضاً عاشقة ولحبها الحق فى الحياة . ثم هى زوجة ولها حقوق الزوجات . ثم انظر إليها ضارعة قد جثت أمام الثريا تستعطفها وتترضاها وتطلب إليها أن تترك لها زوجها . وانظر إلى الثريا وقد اضطربت كلها لهذا الموقف فخيرت عمر بينهما ، وعمر لا يختار ، وإنما يريد أن ينصرف مع زوجه ليفرغ من هذا الموقف المؤلم . أو يريد أن يصرف

زوجه ، ولكن زوجه قد رأت وفهمت . فانظر إليها وقد اقتنعت بضعفها ، واستيقنت بأن عمر ليس مفتوناً بالثريا ، وإنما يحبها حقا ، وإذا هي تتشجع فتكظم عواطفها وتغالب عبراتها ، ولا تطلب إلى زوجها أن يرحمها أو يرد إليها ، وإنما تطلب إليه أن يطلقها ، لأنه إذا لم يكن يحبها ففيم الحياة معاً ؟ ثم تنصرف وتتركه مع عشيقته واجماً بهذا الحديث لا يعرف ماذا يصنع ولا يدرى كيف يقول ؟ ولكن الأمر لا يقف عند هذا فسيقبل عمر على المنزل بعد حين طويل أو قصير وسيلتقى الزوجان وجهاً لوجه . فانظر إلى ما يحدث فى هذا الموقف من تغير العواطف وتبدلها . فهذه كلثم تنتظر زوجها مغضبة محنقة محزونة . وهى تهيىء نفسها للدفاع عن حقها وعن شرفها . وهى تعتقد أنها ستحسن الدفاع ، وأنها ستكون شجاعة قوية بل عنيفة قاسية . ولكن ماذا ؟ لقد أقبل زوجها فلم تكد تراه حتى فقدت شجاعتها وقوتها ، وإذا هى تكظم الحزن أن ينفجر وتحبس الدموع أن تنهمر . وإذا هى تبحث عن القوة المادية فلا تجدها ، وعن اللفظ فلا تكاد تظفر به . أما هو فقد أقبل على المنزل وهو يرى أنه قد ظلم امرأته ظلماً فاحشاً ، وأساء إليها إساءة منكرة . فهو يستعطفها

ويترضاها ويحاول أن يدافع عن نفسه ، وهى لا تسمع له ولا تصدقه . ولكنه صادق . فقد لا يكون حبه إياها قويا ، ولكنه قد أحبها . وقد قوّت المحن هذا الحب فأصبح الآن عظيما . وهو كلما تكلم ظهر صدقه . وكلما ظهر صدقه أثر فى نفس امرأته ، وإذا تحول غريب فى العاطفة : أما هو فشديد الهيام بزوجه ، يدنو منها يريد أن يضمها إليه . وأما هى فليست أقل منه هياماً ، ولكنها أشد منه شجاعة وأعظم منه شعوراً بالكرامة . فهى تغالب عواطفها وتقف زوجها عند حده . وتسأله : أيستطيع أن يقطع الصلة بينه وبين صاحبته ؟ فإذا هو متردد ، يفكر ولا يجد جواباً صريحا . ولكن هذا التردد نفسه يكفيها فتقتنع بأنه لا يستطيع . وانظر إلى التغير الجديد فى عواطفها . أنظر إليها راضية مطمئنة تعلن إلى زوجها أنها تحبه ، وأنها وإن كانت تألم لأنها لا تجد لحبها صدى فى نفسه ، إلا أنها ستطوى قلبها على ألمه ، وستغمض عينيها على القذى ، وستضحى بنفسها فى سبيله ، وستضحى بسعادتها فى سبيل سعادته . وفى سبيل الحب ما تتكلف فى ذلك من عناء . وفى سبيل الحب أيضاً ما تؤرق فى ذلك من ليل طويل . فى سبيل الحب هذا كله . فإن هذه المحنة القاسية لم تتكشف لها

إلا عن شيء واحد ، وهو : أنها تحب زوجها إلى أبعد ما يمكن أن ينتهي إليه الحب ، وتحتمل فى سبيله أقصى ما يمكن أن تحتمل المرأة من مشقة وجهد وتضحية . وهو يسمع منها هذا فيأخذه شيء من الذهول لا حد له ، وإذا هو معجب بهذا الحب وهذه التضحية عجباً لا يزيده إلا هياماً . فانظر إليه وقد مال إليها فى وداعة وحنان ، ونظر إليها فى رفق وعطف ، ثم انحنى عليها فضمها إليه ضماً خفيفاً ، وقبلها فى هدوء ودعة . وهى مستسلمة له لا تجد من نفسها ممانعة ولا شيئاً يشبه الممانعة . ولكنها تنظر فتجد دموعاً تنحدر من عينيها لا تدرى لماذا انحدرت ؟ فلم تكن فى حاجة إلى البكاء ، ولم تشعر بدافع إليه . ولكن هذه الدموع انحدرت فى صمت ، فمسحها عمر فى رفق ، وضمها إليه مرة أخرى ، وقبلها ، وإذا هى تأوى إلى ذراعيه كأنها الطفل قد استسلم إلى أمه الرءوم . ويطمئن رأسها إلى كتفه ، وتقضى على ذلك ساعة لم تنس عذوبتها طول الحياة . ثم ترفع رأسها وتستوى جالسة ، ثم تبسط ذراعها فتطوق بها عنقه ثم تقبله . ثم تقول له : ليت الثريا تقبل فترانا الآن ، لتعرف أنها هى التى تنغص علينا حياتنا وتفسد علينا أمرنا . قال عمر فى صوت حزين رزين : فلا تفكرى فى الثريا

ولا تقحمها دائماً فى حياتنا . قالت كلثم فى صوت يضطرب بين الشدة والهدوء : وهل غيرها ينزلنا من هذه السعادة التى لا توصف إلى هذا الشقاء الذى لا يطاق ؟ فلم يجب عمر . وخيم على المكان صمت عميق .

١٦

ولست أدرى أحق ما زعمت كلثم لزوجها عمر من أنه لولا الثريا لعاشت معه عيشة سعيدة ؟ فقد كان عمر لاهيا عابثاً قبل أن يعرف الثريا ، وقد عرف الثريا وأحبها حبا قوياً عنيفاً ، وكان ينصرف عنها إلى النساء . لا تقلْ : فإنها هى التى كانت تدفعه إلى ذلك بسيرتها معه . فأنا أعرف ذلك . ولكنه كان ينصرف عنها مهما كان مصدر هذا الانصراف وسببه . فإذا كان عمر ينصرف عن الثريا وهو يحبها هذا الحب القوى العنيف ، فأليس من الجائز بل من المحقق أنه كان سينصرف عن كلثم إلى غيرها لو لم يعرف الثريا . وهو لا يحب كلثم كما يحب الثريا ؟ بلى . كان سينصرف عنها ، وكان هذا سيؤذيها وسيشق عليها . ولكن ما لكلثم تغار من الثريا هذه الغيرة . وهى ترى عمر يجرى وراء كل امرأة وكل فتاة ، ويتغزل فى كل امرأة وكل فتاة ؟ أليس هذا لأنها تعرف أن ليس لامرأة من النساء ، ولا لفتاة من الفتيات سلطاناً لها على قلب عمر كسلطان الثريا ؟ بلى . هو كذلك . ومن يدرى ؟

فلعل عمر أن يكون قد تحدث إليها بما يحسه فى قلبه للثريا من حب قوى لا يعرف له حدا ولا أمداً ، فأضرم هذا فى قلبها ناراً من الغيرة لا تعرف كيف تطفئها ، ولكنها تدفعها إلى مواقف مؤثرة عنيفة كانت تقفها من الثريا وعمر حيناً ، ومن الثريا وحدها حيناً آخر ، ومن عمر وحده فى أكثر الأحيان .
وكان أشد هذه المواقف حدة وأكثرها عنفاً وأعظمها تأثيراً هذا الموقف الذى وقفته من الثريا حين طال انصراف عمر عنها وتخلفه عن المنزل أكثر الليل ، فلم تشك فى أنه إنما ينفق الليل مع الثريا ، وإن زعم لها أنه إنما ينفقه بين أصحابه فى لهو وسمر .
ويقبل عمر عليها ذات يوم مع الصبح ضعيفاً مكدوداً ويسعى إلى مضجعه بطيئاً متهالكاً ، ثم يلقى بنفسه على السرير إلقاء . كأنه عجز عن أن يمسك جسمه على ما ينبغى له من اعتدال القامة فخر على السرير كما ينقض البناء . وقد رأته كلما يقبل ثم يسعى ثم ينهار على هذه الحال ، فلم تشك فى أنه أنفق ليله أو أكثر ليله فى غير السمر وفى غير ما يأرق له السمار من لهو الحديث . وقد تركته كلما يقذف بنفسه فى أمواج النوم التى كانت تتمثل أمام عينيه ، فطغت عليه هذه الأمواج المصطخبة فغمرته وأغرقته فنسى بينها كل شىء . ولا يكاد

عمر يمعن فى نومه هذا الثقبل حتى تغرق كلثم فى تفكير عميق . ولكنها لم تفكر فى أن زوجها قد خانها مع الثريا . ولا فى أنه إنما تعرض لهذا الضعف بسبب هذه الخيانة ، ولا فى أنه جدير بما يلقى فى جسمه وصحته بسبب عبثه ومجونه . فالأمر قد أصبح فوق هذه الاعتبارات كلها ، فهناك زوجها الذى تحبه وتؤثره قد أنهكه الضعف ، وأنهكه الضعف بسبب امرأة تغريه وتغويه وتعبث به كما تشاء . وهى تفكر فى أن تنتقم من هذه المرأة ، أو تفكر فى أن تحمى زوجها منها على أقل تقدير . ولكن أفى الحق أنها كانت تريد أن تحمى زوجها من إغواء الثريا ؟ أم كانت تريد أن تستأثر به ، فكانت أثرة تظهر الإيثار . وكانت محبة لنفسها تزعم حماية زوجها ؟ لا أدرى . ولكنى أعلم أنها قد ذهبت إلى الثريا ثائرة فائرة ، فلم تكد تخلو إليها حتى أنبأتها بأنها قد أقبلت لأمر جلل . ولا تطيل فتنبئها بأن عمر قد أصبح فى حالة يرثى لها حقا ، وأنه قد تعرض لما تعرض له من الضعف والخور بسببها هى . وأنها قد فكرت فى الانتقام له . ولكنها تكتفى الآن بالنذير . ولا تريد أن تتجاوز هذا النذير إلى العنف ، فهى تنذرها بأوخم العواقب إن حاولت أن تغوى زوجها بعد ذلك . والثريا تسمع

لها ، مستخفة بها ، ساخرة منها ، حتى إذا انتهت من كلامها قالت الثريا — وقد وقفت موقف من يستعد للحرب ويتحدى خصما عنيفاً — : فإنى قبل كل شيء لا يخيفنى النذير ولا يرعبنى الوعيد ، وأنا بعد ذلك لا أغوى زوجك ، وإنما هو الذى يحبنى ويختلف إلىّ . وإذا كنت أنت حقا قوية قادرة فامنعيه عنى . ولكنك لن تستطيعى ذلك ، لأنه يحبنى أنا ولا يحبك أنت . وأنا لم أدعه إلى هذا الحب . ولو أنى دعوته إليه وأراد نفسَهُ عليه لما استطاع ، وأنت تدعينه إلى أن يحبك ، وهو يريد نفسَهُ على حبك ، ولكنه لا يستطيع ، لأنه لا يملك هذا الحب . فالناس لا يحبون لأنهم يريدون أن يحبوا . ولكنهم ينظرون فيرون أنفسهم يحبون فيخضعون للأمر الواقع . وعلى هذا النحو تجدين أن أمور الحب لا تخضع للإرادة ، ولا يستطيع العقل أن ينظمها ويدبرها . فلا تلومينى ولا تتجنى علىّ . هنالك سقط فى يد كلثم . فإذا هى مضطربة ذاهلة ، ولكنها تسرع فتملك نفسها ، وتقول للثريا فى صوت قوى ولهجة حادة : فما لهذا أقبلت . وإنما أقبلت لأنتقم لزوجى منك ، أو لأحميه منك على أقل تقدير . قالت الثريا ساخرة : تنتقمين لمن ؟ وتحمين من ؟ أيتها العاجزة الحرقاء . إنك قد أخفقت فى أن تستأثرى

بزوجك ، فأقبلت تلومينى فى غير موضع للوم ، وتتجنين على فى غير موضع للتجنى . قالت كلثم : فإنى لم أخفق فى أن أستأثر بزوجى فابعدى أنت عنا وجنبينا شرورك وآثامك . قالت الثريا : فأنت تحبين عمر إلى هذا الحد ؟ ولكن ما رأيك فى أنك لا تُحِبِّين عمر ، وإنما تحبيننى أنا . فأنا وحدى من دون هؤلاء النساء اللائى لها عمر معهن . أنا وحدى التى كونتُ عمر ، وطبعته بطابعى . وقد كان يهذى — كما يقول جرير — قبل أن يعرفنى ، فلما عرفنى قال الشعر ، فأنا التى جعلته كما هو شاعراً ظريفاً فاتناً خفيف الروح والظل والدم جميعاً . وعمر إنما يحبنى أنا . وإذا كان قد بذل لك شيئاً من اللين والرفق ، أو أظهر لك شيئاً من الحب والعشق ، فقد تعلَّم هذا كله بين ذراعىّ . وأما أنت فلم تلهميه شيئاً ، ولم تثيرى فى نفسه عاطفة . إنه ليمنحك فضل حبه إياى . ولا تكاد كلثم تسمع ذلك حتى تضعف وتنخذل ، وكأنها قد سُحقت سحقاً .

وإذا هى تجهش بالبكاء ، حتى لتثير فى نفس الثريا عاطفة الرحمة والشفقة . وإذا الثريا تسألها العفو . وتعلن إليها أنها ستترك لها زوجها ، وأنها قد نزلت لها عنه . وأنها ستقطع صلتها به . ويقبل عمر على الثريا بعد ذلك . فتقص عليه

ما كان من كلثم لها ، وما كان منها لكلثم . وتعلن إليه أنها ستضحى بحبها وعواطفها فى سبيل كلثم . وستقطع صلتها به منذ اليوم ، حتى يكون لزوجه فحسب . ولا يكاد عمر يسمع ذلك ، حتى تدور به الأرض ، وإذا هو يعلن إليها : أنها إن صممت على ذلك فهو تارك مكة ومرتحل إلى اليمن . فما يستطيع أن يعيش فى مكة ، والصلة بينه وبين الثريا مقطوعة والحبل بينه وبينها مبتوت .

.

١٧

ولم يكد عمر يفصل من مكة ويمعن فى طريقه إلى اليمن حتى أحست نساء مكة بشيء غير قليل من الوحشة لفراق هذا الفتى الذى كان له فى نفوسهن أعظم الأثر وأقواه . ولكن امرأتين قد شقيتا بذلك أشد الشقاء ، ولقيتا منه أعظم الجهد وأعظم العناء . ونغضت عليهما حياة النهار ، وصرف عنهما نوم الليل . وفارقت كل واحدة منهما نفسها ، فتبعت ذلك الفتى الذى كان ماضياً فى طريقه نحو الجنوب . وقد عرفت بالطبع هاتين المرأتين : فأما إحداهما فكلثم بنت سعد زوجه وأما الأخرى فالثريا صاحبته .

كانت كلثم تفكر فى زوجها هذا الذى هجرها دون سبب واضح ، أو علة معروفة . وهو لم يهجرها فحسب ، وإنما ترك لها مكة كلها ، ولم يشأ أن يخبرها إلا بأنه مرتحل إلى اليمن ، فمقيم هناك مدة من الزمن قد تقصر وقد تطول ، ولكنه على كل حال سيتركها ، وسيكفل لها حياة طيبة فيها كثير من الرغد والخفض ، وفيها كثير من السعادة والنعيم .

وما فكرت كلثم وما كان لها أن تفكر فى هذه الحياة الطيبة التى سيكفلها لها زوجها فى غيبته . فقد كان بقاؤه معها أحب إليها من كل شىء . بل كان بقاؤه معها بلا شىء أحَبَّ إليها من كل شىء بدونه . وإنما كانت تفكر فى هذا الرحيل الذى لم تعرف له سبباً ولا مصدراً . والذى لم يكن يخطر لها على بال . فقد كانت تقدر أنها ستنعم بزوجها وتستمتع معه بلذات الحياة بعد أن تركته لها الثريا ، وكانت تتمثل هذا الربح الكثير الذى ساقته إليها الثريا حين أعلنت إليها أنها قد تنازلت لها عن زوجها ، وأنها ستقطع صلتها به . ولكن زوجها لم يكد ينصرف عن المنزل ويعود إليه إلا ريثما أعلن إليها السفر إلى اليمن . أفلا يمكن أن يكون قد ذهب إلى الثريا وأن تكون الثريا قد أعلنت إليه القطيعة فضاق بمكة ومن فيها وما فيها من الناس والأشياء فأقدم على هذا الرحيل . وإذن فليتها لم تذهب إلى الثريا ، وليتها لم تنازعها حب عمر . وليتها لم تضطرها إلى قطيعته . فقد كانت هذه القطيعة مصدر هذا الشر وأصل هذا البلاء . وإذن فليت الثريا لم تقطع صلتها له . فقد كانت صلة الثريا له هى التى تبقيه فى مكة وتمسكه فيها ، ولأن يعيش معها فى مكة متصلا بالثريا أحب إليها من هذا

الفراق الذى لا تعرف أيقصر أم يطول ؟ والذى ستنفقه مؤرقة محرقة مفرقة النفس . كانت كلثم تفكر فى هذا كله ، وكانت هذه الخواطر تملأ نفسها هما وحزناً وتُفْعِم قلبها قلقاً واضطراباً. وكانت تحاول الصبر فلا تجد إليه سبيلا .

ولم يكن أمر الثريا بأيسر من أمر كلثم . ولكن خواطرها كانت من طراز آخر ومن طبيعة أخرى ، فهى ليست زوجاً لهذا الفتى وإن كانت عشيقة له ، وهى التى هجرته فاضطرته إلى هذه الهجرة ، بل هى التى دفعته إليها دفعاً . ولكنها مع ذلك تحبه ، وحسبك بالحب مثيراً للحزن والقلق ، وباعثاً للجزع والفزع ، وحائلا بين القلوب وبين ما تحتاج إليه من الهدوء والاطمئنان .

لقد أحبت الثريا هذا الفتى حبا ملك عليها نفسها وقلبها ، وكانت خليقة من أجل ذلك أن تراه دائماً إلى جوارها ، ولكنها تعلن إليه القطيعة وتهجره هذا الهجر المنكر ، فتضطره إلى هذا الرحيل وتدفعه إليه دفعاً . أمحبة هى لهذا الفتى أم مبغضة له ؟ أراغبة هى فى هذا الفتى أم راغبة عنه ؟ أحريصة هى على جوار هذا الفتى أم على فراقه ؟ إن أمرها لعجيب مهما تقلبه على وجوهه . لكن ألمها شديد وحزنها موجع وقلقها مضن .

وإن لومها لنفسها لشديد ، وإن تأنيبها لنفسها لعنيف ، لما فرطت فى ذات حبيبها . فقد كانت خليقة ألاتقطع الأسباب بينها وبينه . وقد كانت خليقة وقد قطعت هذه الأسباب ، ألا تخلى بينه وبين الرحيل ، حتى لا يتعذر عليها أن تراه أو تسعى إلى رؤيته كلما اشتاقت إليه بين الحين والحين ، فما الذى دفعها إلى أن تركب رأسها فتقطع صلتها به ؟ وما الذى دفعها إلى أن تركب رأسها مرة أخرى فتتركه يرتحل . وهلا أخذت عليه عهداً حين أعلنت إليه القطيعة من أجل كلثم ، أن يبقى فى مكة حتى يتاح لها أن تراه وأن تستمتع برؤيته فهى لم تعلن إليه القطيعة عن قِلًى ، ولم تهجره عن زهد فيه أو رغبة عنه أو نفور منه . ولعلها لم تحبه قط كما تحبه الآن . ولم تؤثره قط كما تؤثره الآن . ولم تعرف سلطانه عليها ويده عندها كما عرفتهما الآن . بل إنها لتحس كأنما شطرت قلبها شطرين فحفظت شطره فى صدرها وتركت شطره الآخر يمضى إلى مكان بعيد فى أعماق اليمن حيث لا يتاح لها أن تلقاه . بل لعلها لم تعلن إليه القطيعة إلا حبا فيه وإيثاراً له وضنا به على هذه الحياة التى يحياها مقسَّما فيها بين زوجه وعشيقته . فأرادت أن توفر له حياة الأمن والهدوء والاستقرار . ولكن ألا يمكن أن

تكون قد فعلت هذا لأنها تريد أن يكون عمر لها من دون زوجه . ولعلها كانت قد طلبت إليه ملحة عليه أن يترك زوجه ويخلُص لها هي ، فهي كغيرها من العاشقات تأبى إلا الاستئثار السخيف بكل شيء . ولا يكفيها أن تستأثر من عشيقها بحبه وحنانه وقدرته على اللذة . وهي تذكر أنها كانت تضيق عليه وتسرف في الغيرة وتعتدى على حريته اعتداء متصلا لا يطاق . وهي إذن لم تعلن إليه هذه القطيعة إلا لأنها تبينت عجزه عن أن يقطع الصلة بينه وبين زوجه ، وهي لا تحتمل شريكاً في الحب كما أنها لا تقنع من الحب بالشيء القليل .

وجعلت هذه الخواطر تفسد على الثريا أمرها ، وتعرضها لآلام وأحزان لا حد لها . وكثيراً ما جعلت الثريا ترد عن نفسها هذه الخواطر بأنها حين أعلنت إليه القطيعة ، لم تقل له ارتحل . وكثيراً ما ارتحل ثم عاد لم تتجاوز غيبته الشهر والشهرين ، فلتنتظر حتى يعود وتجدد العهد معه وتستأنف الصلة به . ولكنها تنتظر الأشهر والأشهر ولا يعود عمر ويتحدث الناس في مكة بأن عمر بن أبي ربيعة قد نسك وترك حياة اللهو والعبث . وتشعر الثريا بخيبة أمل في صاحبها لا عهد لها بها . وإذا هي تطوى قلبها على جراحه ، ويشاء القدر أن يقبل على مكة في ذلك الوقت سهيل بن عبد العزيز بن مروان .

١٨

وكان سهيل بن عبد العزيز بن مروان فتى أمويا من قريش ، وكان قبيح الصورة دميم الشكل لا تكاد تقع عليه العين إلا انصرفت عنه مشمئزة وانحرفت عنه نافرة . وكأنّ دمامته وقبحه قد صرفا عنه النساء أو صرفاه عن النساء . فلم يحاول أن يفتنهن لفقده أسباب هذه الفتنة ، ولم يحاول أن يتتبعهن ليأسه من أن يظفر منهن بنصيب . ولكنه وإن لم يُقدم على غرام مع النساء بسبب دمامته وقبحه إلا أن دمامته وقبحه هذين قد دفعاه دفعاً إلى أن يتخذ له زوجاً من أجمل نساء العصر شكلا ، وأحسنهن منظراً ، وأروعهن صورة ، وأقدرهن على اختلاب القلوب واستلاب الألباب . ولم لا يتخذ هذه الزوج وهو من الأسرة الحاكمة التى تملك أمر المسلمين وترعى شئونهم وتتصرف فيهم كما تريد ؟ ومن غير الثريا من النساء تستطيع أن تدانيها فى جمالها وحسنها ، أو تقاربها فى فتنتها وروعتها ؟ إذن فليتقدم لخطبتها . ولكنها صديقة عمر بن أبى ربيعة ، ولها معه ماض مهما يقل الناس عن طهره وبراءته

فحسبه أنه ماض ، وأنه محسوب عليها مهما كان الأمر .
ولكن سهيلا رجل ساذج طيب القلب من ناحية ، وهو حين أقبل على مكة قد رآها ففتن بها من ناحية أخرى ، فهو لا يفكر إلا فى أن يتخذها له زوجاً . وحسبه أنه سيتزوج من هذه الفتاة التى فتنته وملكت عليه أمره كله ، وحسبه أنها سترضى به زوجاً لها على جمالها الجميل وقبحه القبيح . .

ويتحدث سهيل إلى بعض أقربائها الأقربين فى أمر هذا الزواج ، فيقبلون مغتبطين به ، مطمئنين على مستقبل ابنتهم ، واثقين بصدق سهيل وإخلاصه ، وبأن الثريا ستكون سعيدة فى بيته . ولكن الثريا لا تكاد تسمع بهذا الزواج حتى ترفضه رفضاً قاطعاً ، ترفضه لقبح سهيل وترفضه لأنها وإن قطعت صلتها بعمر إلا أنها ما زالت تحبه ، وهو وإن طالت إقامته فى اليمن إلا أنه سيقبل يوماً ما ، وستعود صلة الود بينهما كما كانت قوية متينة . وهى تعلن إليهم : أنه إذا تم هذا الزواج فسوف تجحده ولا تعترف به . فهى إذن مقتنعة فيما بينها وبين نفسها بأن كلمة الحب أقوى من كلمة الزواج وهى مقتنعة أيضاً بأن حبها لعمر لم تنفصم عروته ، وبأنها ما زالت مدينة بحياتها لعمر ، وأن عمر ما زال مديناً بحياته لها . ولعلها

كانت تجحد زواجه من كلثم ولا تعترف به ، لأنه زواج لا يعتمد على أساس من الحب ، وإن اعتمد على أساس من الدين . وإذا كان عمر قد خالف الحب وخرج على شريعته وتزوج من كلثم فتورط فى الخطيئة . فليس ينبغى لها أن تخرج على قانون الوفاء وأن تقطع صلة أنشأتها كلمة الحب. هى إذن تقدس الحب ، وتتخذه لها شريعة ومنهاجاً . فهى لا تريد أن تخرج عليه ولا أن تخالف عن أمره . وهى تعلم أن شبابها وجمالها وحاجتها إلى الحياة وإلى السعادة فى الحياة كل ذلك يقضى عليها بقبول الزواج ، ولكنها ترفض هذا الزواج وتقضى على جمالها النضر بهذا الذبول ، وتقضى على نفسها بالبقاء فى العزلة ، وتحرم على نفسها ما يباح لغيرها من الرجال والنساء من هذه الحياة الاجتماعية السعيدة المعقولة .

وبينما هذا الجهاد فى أشد أطواره من العنف ، يقع شىء يزيده عنفاً ، ويحمل الثريا على أن تثور ، فتخرج على نفسها التى كانت تلح عليها فى رفض هذا الزواج ، وتخرج على الحب الذى كان يحرم عليها هذا الزواج . وإذا هى قابلة لما كانت ترفضه من قبل . ذلك أن كلثم تقبل عليها كئيبة ملتاعة تحدثها عن زوجها هذا الذى قضى فى اليمن

هذه المدة الطويلة العريضة ولم يعد إليها . وإذا الثريا تعلن إليها أنها قد فعلت الواجب وأكثر من الواجب حين ضحت بنفسها وعواطفها فى سبيلها وسبيل سعادتها ، وقد أعلنت إلى عمر القطيعة ، قبل أن يسافر إلى اليمن . وإذا كلثم تبكى بكاء مراً وتقول لها : فليتك لم تعلنى إليه القطيعة . إذن لبقى فى مكة ولم يرتحل إلى حيث ارتحل ، ولم يقم حيث أقام . هنالك تغضب الثريا وتقول لها : فماذا أصنع لك أكثر من هذا ؟ لقد أحْبَبْتُ عمر أشد الحب، وأعلنتُ إليه القطيعة من أجلك . فآثرتك بخير ما أحب. ثم أنت هذه تنكرين علىّ هذه القطيعة ، وتتمنين لو لم أعلنها إليه . سوف أريحك يا كلثم . سوف أترك لك ولزوجك الحجاز كله . قالت كلثم : فما لهذا أقبلت . قالت الثريا : أقبلت لهذا أو لغيره فإنك سترين وستسمعين فى الأيام القليلة المقبلة أنى قد تركت الحجاز . وكلثم تستعطفها وتتوسل إليها ألا تفعل . ولكنها لا تصل منها إلى شىء . فقد استقر رأيها على أن تقبل الزواج من سهيل ، وأن ترتحل معه إلى مصر أو إلى الشام .

١٩

وعاد عمر إلى مكة لا أدرى أبلغه وهو فى اليمن شىء عن خطبة سهيل للثريا ، فأقبل مسرعاً ليُلغى أمر هذه الخطبة إلغاءً . ولكن القضاء كان قد سبق بما لم يكن يُحب ، فتمت الخطبة وانتهت إلى غايتها وأصبحت الثريا زوجاً لسهيل ؟ أم أن عمر قد عاد إلى مكة حين اشتد حنينه إليها ، وطال شوقه إلى لقاء من فيها من الناس عامة ، وإلى لقاء أهله وأحبائه خاصة ، وإلى لقاء الثريا بنوع أخص . فلم يكد يبلغ مكة ويأخذ مع أهلها فى بعض الحديث حتى بلغه هذا النبأ المؤلم الذى هدّه هدًّا ، ومزق فؤاده تمزيقاً ؟ ومهما يكن من شىء فقد عاد عمر إلى مكة ، وتحدث إليه المتحدثون بأن الثريا قد تزوجت من سهيل بن عبد العزيز بن مروان . وارتحلت معه إلى الشام أو مصر — يختلف فى ذلك الرواة — فلم يكد عمر يسمع ذلك حتى فقد صوابه وخرج عن رشده . ولولا فضل من ثبات وبقية من عقل لانتهى به الأمر إلى جموح يخرجه عن طوره ويدفعه إلى مالا صلاح له من الأمر . ولكنه تمالك نفسه وأطرق

قليلا . ثم رفع رأسه وعلى ثغره ابتسامة يسيرة ، ثم نظر أمامه لا يريد أن يرى شيئاً . وإنما هو واجم باسم ينظر ولا يرى ، ويفكر ولا يحقق شيئاً ، ثم تتسع ابتسامته قليلا ، ثم ينفرج فمه عن ضحك ساخر وهو يتغنى هذين البيتين :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان ؟
هي شاميّة إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

وهو يسأل محدثيه فى صوت حزين بعيد محطم . متى كان ذلك ؟ وكيف ؟ فيخبرونه : بأن ذلك كان فى الأيام القريبة الماضية حين أقبل سهيل على مكة فرأى الثريا وفتن بها وجن بها جنوناً . وقد خطبها فرفضت أول الأمر ، ولكنهم لا يعرفون لماذا وافقت بعد ذلك ؟ . ويركب عمر فرسه ، ويأخذ معه غلامه ، ويفصل من مكة ، ويأخذ قصد الشام . وإنى لأراه فى طريقه فيمتلىء قلبي رحمة له وإعجاباً به وخوفاً عليه . وأى قلب لا يرحم هذا الفتى العاشق الذى لم يكد يقبل من سفره حتى تهيأ لسفر آخر ، وقد ألم به ذلك الخطب الذى قتل نفسه وسحق قلبه ومزق ضميره ، حين علم أن حبيبته لم تصبح له . وإنما أصبحت لرجل آخر يستطيع أن يبلغ منها كل ما يريد باسم الدين والعرف والقانون . وهى

قد ارتحلت مع ذلك الرجل، فلن يجد عندها منذ اليوم ما كان يجده عندها من قبل من لذة ومتاع . وهو لا يريد اليوم إلا أن يراها ويملأ عينيه من جمالها . ويملأ قلبه ونفسه وضميره مما تشيعه فى الجو حولها من ظرف ورقة ، فهو ينطلق كما ينطلق السهم ، ويمضى أمامه مندفعاً لا يقف ولا يلتفت عن يمين ولا شمال ، ولا يلتفت إلى وراء . كأنه بطل من أبطال القصص قد مضى لغايته ووعى نصيحة الناصح ، فهو لا يلتفت مخافة أن يدركه البوار إن حوّل وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه .

وأى قلب لا يعجب بهذا الفتى العاشق الذى كان يهيئ نفسه ليستأنف الصلة بينه وبين حبيبته التى هجرته . فإذا هى قد أفلتت منه وتزوجت من غيره وابتدأت رحلتها الطويلة إلى غايتها البعيدة ، وإذا هو لا يحس ثورة جامحة وإنما يحس ألماً لاذعاً ، وإذا نفسه لا تتحدث إليه بالانتقام منها ، وإنما تتحدث إليه باللحاق بها ، ليراها ويودعها ويذرف بين يديها دموعه الغزار . فهو لا يريد أن يقصر فى ذاتها أو يؤذيها بالإهمال والإعراض ، أو يسوءها بالجحود والعقوق ، وقد عاهدها على الود الدائم والوفاء المقيم . فهو يسعى لا يلوى على

شيء . لا يفكر إلا فى أن يلحق بها . يدفعه حب قوى ، وشوق عنيف ، وحنين لا حد له .

وأى قلب لا يخافَ على هذا الفتى العاشق الذى يعرف الناس عنه أنه ليس صاحب حشمة ووقار وسيرة حسنة . وإنما هو زير نساء يحب الدعابة والمجون ، ولا يتحرج مما يتحرج منه الرجل المستقيم . وله فى مكة وما حولها خطوب تخيف منه وتخيف عليه . وهو يترك مكة ويسعى وراء فتاة يعلم الناس أنه كان يحبها ، ولكنها قد تزوجت وارتحلت مع زوجها ، فهو يهيء نفسه لخطر ما بعده خطر ، وقد يذهب ضحية له . وإذن فليس له ثأر يطالب به . وليس من سبيل إلى استعداء السلطان على قاتله .

لك الله أيها الفتى العاشق الوامق . لستُ أدرى أين وجدتَ القوة التى هيأتَ بها نفسك للسعى وراء معشوقتك ؟ ولستُ أدرى كيف فكرت فيها وأقبلت عليها بعد إطراحها لك وإعراضها عنك ؟ ولستُ أدرى كيف تجد القدرة على لقائها والتحدث إليها بعد أن وجدتْ هى القدرة على هجرك وقطع أسباب الود بينها وبينك؟ إن إقبالك عليها وسعيك وراءها لا يدلان إلا على أنك عاشق كسائر العشاق . فيك ضعفهم وقصورهم وغرورهم

وفيك إيثارهم وأثرتهم معاً . إنك لتؤثر الثريا وتتمنى أن تستأثر بها وتعود معها إلى أيامكما السالفة . ولكن هيهات هيهات . لقد أصبحت الثريا ملكاً لسهيل . وقد ارتحل بها إلى حيث يستقبل حياة لا يفسدها عذل العذال ولا تكدرها وشاية الوشاة . وإنك لتسعى وراءها محتملا مشقة الطريق وجهد السفر ، لا يدركك الإعياء ولا ينالك الكلال . وإنك لتقطع الطريق ، وإن النهار ليتقدم وإن الشمس لترتفع وترسل أشعة من اللهب تضطرم لها الأرض ويتوهج لها الجو . وأنت تسعى فى هذه النار المحرقة تريد أن تنعم بساعة حلوة لذيذة تقضيها مع حبيبتك قبل أن تبعد عنك ويتعذر عليك اللقاء . ها أنت هذا قد قطعت مرحلتين من الطريق . وهذه الشمس قد أخذت تخف بعد شدتها ، وأخذ وجه النهار يدركه الشحوب . وهذه هى الثريا وهذا زوجها وهذه حاضنتها وهؤلاء خدامها وجواريها . إنزلْ عن فَرَسِكَ وادفع به إلى غلامك . وانتظر حتى يذهب هذا النهار الفظيع الذى لا يخفى عليه شىء ولا يستتر من دونه أحد ، ويقبل هذا الليل العطوف الأمين بظلمته الحصينة المتينة التى لا تلمع فيها إلا هذه الأشعة الضئيلة التى ترسلها إليك النجوم كأنها التحية الخفية يرسلها الحبيب إلى عاشقه

بمأمنٍ من الرقباء. فإذا أقبل هذا الليل فامش متنكراً ومرّ بهذه الخيمة التى نزلت فيها الثريا ، فسوف تعرفك وتثبت حركتك ومشيتك . ويمشى الفتى متنكراً فلا تكاد الثريا تراه وتعرفه حتى يخفق قلبها خفقات لا تدرى أهى خفقات بالرضا والغبطة ، أم خفقات بالغضب والضيق ؟ فقد كان فراق الفتى لها قد طال أمده . ولم يعرف أنها بعد أن أعلنت إليه القطيعة قد ندمت على ذلك أشد الندم ، ووددّت لو أقبل عليها فاستأنف صلته بها . فلما طالت غيبته فى اليمن وطال انتظارها لمقدمه دون جدوى ، قضت أيامها محطمة القلب خائبة الأمل ملتاعة النفس محزونة الضمير . وكانت تغالب الشوق والحنين إليه فتغلبهما حيناً ويغلبانها حيناً . حتى كان اليوم الذى أقبل فيه سهيل عليها فخطبها وتم زواجه منها ثم ارتحل بها . وما كانت تظن أن عمر سيقبل من اليمن ويعرف أمرها فيتبعها ويدركها فى الطريق ، فلما رأته وعرفته أحست هذا التردد بين الابتهاج والابتئاس ، وبين الرضا والسخط . ثم بعثت حاضنتها إليه فأتت لها به إلى حيث استقبلته بابتسام فاتر ونشاط متكلف . وليس من شك فى أنها قد تصنعت هذا الفتور وتعملت هذا التكلف . ولو أرسلت نفسها على سجيتها

وأطاعت غريزتها لألقت نفسها بين ذراعى حبيبها ضاحكة باكية ومغرقة فى الحزن والفرح معاً . ولكنها تكلفت الأناة والوقار ونجحت فيما تكلفت . فأرسلت إلى نفس عمر شيئاً من الفتور وخيبة الأمل . ولكنها تجلس إليه فيتعاتبان ويبكيان . فتقول الحاضنة لهما : ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرحيل ، فيحادثها ويغرق معها فى مناجاة حلوة هادئة ، ثم يفيقان حين يمسهما برد السحر ، وكأنما ثابا إلى نفسيهما من سفر بعيد ، وينظران حولهما فيريان الفجر وقد أخذ يتنفس فى دعة . ويريان أصابعه تمتد إلى الأشياء كأنما تريد أن تلمسها ، ويريان الليل ينحسر عن الأشياء كأنما يودعها محزوناً ، ويريان النجوم تنهزم فى السماء كأنما تخاف جيشاً منتصراً . فيودعها ويبكيان طويلا . ثم يقوم فيركب فرسه . ويقف ينظر إليهم وهم يرحلون ، ثم يتبعهم بصره حتى يغيبوا . ويقول قصيدته :

ياصاحبىَّ قفا نستخبر الطللا
عن حال من حَلَّهُ بالأمس مافعلا

٢٠

والآن ماذا تصنع أيها الفتى البائس الشقى ؟ لقد انحدرت إلى مكة ولكنك لم تكد تهبط إليها حتى دفعت بفرسك إلى غلامك ، وأمرته أن يذهب هو إلى المنزل . وأما أنت فلن تقبل على المنزل الآن . ماذا تريد؟ وإلى أين تمضى ؟ إنك لتنتهى من طريق لتندفع فى طريق أخرى ، كأنك لا تريد وجهة بعينها ولا تسعى إلى غاية معروفة ، وكأنك إنما تلتمس راحة النفس فى تعب الجسم . وإنك لتمضى وتمضى حتى تصل إلى المسجد الحرام . انظر . ها أنت هذا قد بلغت المسجد الحرام . فأما عن يمينك فهذه الطريق التى تنتهى بك إلى دار هند بنت الحارث . وأما عن شمالك فهذه الطريق التى تنتهى بك إلى دار صديقك ابن أبى عتيق . إلى أى الوجهين تريد أن تمضى؟ أتريد أن تمضى إلى يمين لتبلغ هِنْدا فتجلس إليها وتسمع منها؛ فقد يُضْحكك ما تخوض فيه من عبث ودعابة . فما أكثر ما يكون حديثها عبثاً ودعابة ، فهى لا تحسن فى الحياة إلا العبث والدعابة . أم تريد أن تمضى إلى شمال لتبلغ

صديقك ابن أبى عتيق فتستعين به على ما يضيق به صدرك من الخواطر والهموم؟ وقد تجد فى حديثه إليك تسلية وتسرية وعزاء ؟ أم تريد أن تدخل المسجد الحرام ؛ فقد تجد فيه بعض النساء اللاهيات أو بعض الغزلين العابثين . إلى أين تريد أن تمضى ؟

وما أرانى محتاجاً إلى أن أسمع منك جواباً . فأنت تريد من غير شك أن تأخذ طريقك عن يمين لأنك تريد أن تقبل على هند ، فتجد عندها من ضروب اللهو ، وألوان العبث والمتاع ما يخفف عن نفسك بعض ما تجد من حزن وما تحس من شقاء . ها أنت هذا قد بلغت دار هند . وهذه الدار كما عرفتها رشيقة أنيقة مغرية مطمعة لا ترد طارقاً ولا تصد راغباً ولا تتجهم لزائر ولا تنبو بضيف . إنها لتدعوك ملحة فاستجب للدعاء ، وإنها لتناديك ممعنة فلب النداء . وإن فى داخل هذه الدار لفتاة لو رأتك لأقبلت عليك مبتهجة لك رفيقة بك ، تمسح رأسك وتمس وجهك وتأخذ بطرف ردائك . ولو حاولت أن تتقيها وأن تمتنع عليها فلن تجد إلى شىء من ذلك سبيلا . إنها لتحبك وتتمناك وتكلف بك وتحرص عليك . وإنها لتقضى أيامها لا تتحدث إلا عنك . وتنفق لياليها لا تفكر إلا فيك . ادخل يا فتى وخلاك ذم . فستجد عند هند شفاء

قلبك وراحة نفسك ، إن فى وجهها لإشراقاً حلوا . وإن فى طرفها لسحراً فاتنا . وإن فى صوتها لعذوبة تخلب العقول وتستهوى الألباب — ها أنت هذا قد دخلت ، وهذه هى هند . أنسيتها ؟ هندُ التى كم وجدت فى رفقها بك وعطفها عليك ما ينسيك قسوة الثريا وجفوتها . هند التى كانت خليقة أن تحتل من قلبك هذه المكانة الممتازة لولا أن سبقت إليها الثريا فاحتلتها . كلا . لم تنس هندا ، ولكنك عنها مشغول بالثريا . وهى تحدثك وتحدثك ، وكان خليقاً أن يصل صوتها إلى نفسك فيحييها ويوقظ فيها الذكرى ويبعث فيها الأمل ويشيع النشاط . ولكن صوتها لا يبلغ نفسك ولا ينتهى إليها . وها أنت هذا قد أنفقت معها شطراً من النهار . ولكنك لم تجد عندها راحة نفسك وهدوء قلبك . قم فاستأذن وانصرف . ولكن إلى أين ؟ وما أرانى أيضاً محتاجاً إلى أن أسمع منك جواباً . فأنا أعلم أنك تحب دار الثريا ، وتجد لذة فى أن تخلو إليها فتقول لها وتقول لك . إذن فعرِّج عليها وقف عندها ساعة ، فأنا لا أكره أن تقضى ساعة مع دار الثريا ، تقف فيها وتستوقف . وتَذْكُر حبيبتك وتذكِّر بها وتَتْبَعُها فى ظعنها ، وتصف ما سلكت من طريق ، وما عرض لها فى سفرها من

خطوب . وما أنضت من إبل ، وما وردت من ماء ، وما انتهت إليه من مرعى . نعم أنا لا أكره أن تقضى ساعة مع دار الثريا تنسى فيها نفسك وترسل قلبك على جناحى هذا الطائر الرشيق الذى يحسن الإبطاء والإسراع والوقوف والمضى جميعاً وهو الذكرى . وسوف تتحدث إليك الدار أحاديث جميلة شديدة التأثير فى نفسك ، تثير كثيراً من الخواطر الشاحبة الحزينة التى لا تخلو من أن تثير لذات شاحبة حزينة مثلها . وما رأيك فى حديث تحمله إليك هذه الدار التى لا تنطق وأنت تسمع هذا الحديث وكأنك تسمع إلى إنسان ينقل إليك بعض ما يخطر له من الخواطر وما يعرض له من المعانى وما يثور فى قلبه من العواطف . وها أنت هذا قد قضيت مع دار الثريا وقتاً طويلا ، وقد أخذت الشمس تنحدر إلى مغربها مسرعة ، وما إخالك قد ذقت طعاماً ولا شراباً . ألم تحس لذع الجوع وحر الظمأ ؟ ألم يأن لك أن تعود إلى منزلك فتصيب من طعامه وشرابه وترفق بنفسك وترفه عليها ؟ فقد أنفقت يوماً طويلا ثقيلا لم تذق فيه للراحة طعماً كما لم تذق فيه من الطعام أو الشراب شيئاً . ها أنت هذا قد عدت إلى دارك . ولكنك لم تقبل على طعام ولا شراب . وأحسب لو أنك

أقبلت على الطعام والشراب لما أصبت منهما إلا قليلا ، وما وجدت لما أصبت طعماً أو أحسست له ذوقاً . فقد كان سيصرفك عنه شخص هذه الحبيبة الذى يرتسم فى نفسك ارتساماً قويا ويتمثل أمامك تمثلا متصلا ملحا . وهذه زوجك تقبل عليك . ولكنك ضيق الذرع بها ، تريد أن تخلو إلى نفسك وتفرغ لخواطرك وتستعرض حياتك هذه المعقدة أشد التعقيد، الملتوية أشد الالتواء . تستحضر ما ضيك البعيد ، وتستحضر ما ضيك القريب . وتحاول أن تتصور حياتك فيما تستقبل من الأيام . وها أنت هذا قد خلوت إلى نفسك فذكرت أيامك الخالية قبل أن تعرف الثريا ، أيام أن كنت لاهياً عابثاً تندفع فى لذتك وسعادتك إلى غير حد ، لا تفكر فى الغد ولا تحسب للمستقبل حساباً . وذكرت أيامك بعد أن عرفت الثريا ، هذه الأيام التى كنت ضيقاً فيها بالثريا،ولكنك كنت سعيداً بهذا الضيق . وكنت متعباً فيها من غموضها ، ولكنك كنت تجد راحتك فى هذا التعب . وإذا أنت لست كعهد الناس بك لاهياً عابثاً لا تعرف الحب . وإنما أنت رجل آخر قد خلقتك الثريا خلقاً جديداً . وإذا أنت محب هائم ، وإذا أنت كثير التفكير متصل التروية ، لا ترى من

الثريا شيئاً ولا تسمع منها شيئاً إلا حاولت أن تعرف مصدره وغايته وتفهم ظاهره وتأويله . ومع ذلك فقد طبت الثريا لعلتك ذات يوم ، وأنفقت معها يوماً سعيداً لذيذاً ، ولم يكن هذا اليوم آخر الأيام السعيدة اللذيذة ، فقد قضيت معها أياماً أخرى هي من غير شك أسعد أيامك وألذها . لم تعرف فيها ألماً ولا حزناً . ولم تحس فيها تعباً ولا ضيقاً . ولم تكن فى حاجة إلى التفكير والتروية ، فقد شغلتك الثريا بنفسها وبما تذيقك من ألوان اللذات عن كل شيء وصرفتك عن كل شيء . وكنت فى هذه الأيام لا تحب أن ترى غير الثريا من النساء مهما برع جمالهن وراع حسنهن ومهما خلبت فتنتهن النفس وراق منظرهن العين . فقد كانت الثريا عندك هى كل شيء . وكان إذا أقبل عليها أترابها وأنت معها سئمت بهن وضقت بهن ذرعاً : فقد كان محضرهن خليقاً أن يصرفك عن الثريا أو يصرف عنك الثريا وأبغض شيء إليك وأشقه على نفسك أن تنصرف عن فتنتك أو تنصرف عنك فتنتك . والآن وقد تزوجت الثريا من سهيل وانقطعت بينك وبينها الأسباب ألا تحب أن تنساها ، وأن تعود كما كنت لاهياً عابثاً لا تعرف الحب ، هذا الذى يؤرقك إذا أظلم الليل ويفرق نفسك إذا أسفر الصبح

ولكن من لك بذلك ؟ وما سبيلك على قلبك ؟ وما سلطانك على نفسك ؟ وهل أمور الحب تخضع للإرادة ؟ ستظل محبا للثريا هائماً بها ، لأنك لا تملك غير ذلك . وستنظر إلى بيتك كلما دخلته ، وإلى بيت الثريا كلما مررت به . وإلى المسجد الحرام كلما أقبلت عليه ، وإلى هذه الأشياء المختلفة التى كانت تشهدك مع الثريا فتأسف وتأسى . وتذكر ما كان لهذه الأشياء كلها من أثر فى حياتك . بل تذكر أن حياتك مكونة من هذه الأشياء . ومن يدرى ؟ فلعل الذكرى أن تملأ نفسك وقلبك وأن تنسيك نفسها . وأن تخيل إليك أنها حاضرة لم تمض ولم تنقض أيامها . ولعلك تعتقد أنك مع الثريا فتدعوها باسمها ولكنها لا تجيب . فتلتفت عن يمين وشمال فلا تجد أحدا . وإنما أنت تسير وحدك . فتثوب إلى نفسك وقد وجدت حزناً لاذعاً وألماً ممضاً ويأساً لا صبر معه ولا احتمال له . قل الحق . ألست أصور ما تجد ؟ ألست أصف ما تحس ؟ ألست أحدثك بما تحب أن أتحدث إليك فيه ؟ ولكنك قد أطلت الخلوة إلى نفسك . تتغنى ؟ وماذا تتغنى ؟ تتغنى شعرك فى الثريا ؟ أما أنا فمعجب بهذا الشعر ، لأنه ليس إلا صيحة من هذه الصيحات التى تنبعث من نفوس العشاق حين تتلظى قلوبهم

بجمر الحب ، وتضطرم نفوسهم بنار الشوق فتنبعث قوية عنيفة لأنها صدرت عن حب قوى وشوق عنيف. تغنّ ما شئت من هذا الشعر فأنا أجد فى كل ما تتغناه لذة ومتاعاً وغذاء لقلبى وعقلى جميعاً . إنى لأرى فى هذا الشعر كيف كنت تحرص على لقاء الثريا والجلوس إليها والتحدث معها والاستمتاع بما تبعث فى نفسك من لذة وبهجة وأمل . وأرى فى هذا الشعر كيف كنت تنتظر إدبار النهار وإقبال الليل لتقبل على الثريا فتلقاك مشرقة الوجه باسمة الثغر تحمل إليك الحياة، وتجدد فى نفسك الأمل ، وتمس قلبك بجناح الحب المحرق . ولكن مالك قد انقطعت عن الغناء ، وأغرقت فى هذا الصمت العميق ، ورفعت رأسك كالواجم ، ونظرت إلى السماء محدقاً فيها ؟ لقد أنسيتُ أن فى السماء نجماً يتسمى باسم الثريا أو تتسمى هى باسمه . أتراك قد خلوت إلى نفسك فى هذه الساعة من الليل لترى هذا النجم وتستقبل أشعته وترسل نفسك إليه ، لا لأن هذا النجم يبعث إليك مع أشعته لذة أو حبا أو أملا ، وإنما لتسأله عن ثرياك التى أضلتّها ما خطبها ؟ وأين يمكن أن تكون ؟ وهل لك إليها من سبيل ؟ ولكن النجم صامت لا يرجع عليك جواباً ولا يرد إليك صدى ، كأنما أدركه الصمم ، وكأنما عقد

لسانه عن الكلام . ومع ذلك فما كان أكثر ما تسمع النجوم لأهل الأرض ، وما كان أكثر ما يسمع أهل الأرض لحديث النجوم . لقد أطلت سؤال هذا النجم ولم تظفر منه بشئ فماذا أنت صانع ؟ إنك لتريد أن تكتب إلى الثريا كتاباً تبعث به إليها إذا أقبل الصبح قم فاكتب إليها هذه الأبيات :

كتبت إليك من بلدى   كتاب مـــوله كمد

كئيب واكف العينيـ   ـن بالحسرات منفرد

يؤرقه لهيب الشو   ق بين السحر[1] والكبد

فيمسك قلبه بيد   ويمسح عينـــه بيد

ثم ماذا تريد بعد ذلك ؟ إنك لتود أن تنتظر مع الثريا ، تذكرها وتفكر فيها حتى مطلع الفجر . أليس كذلك ؟ ولكنك الآن تلتمس الذكرى فلا تجدها ولا تظفر منها بشىء . فأنت تريد أن تذكر فلا تستطيع . وتريد أن تفكر فلا تجد سبيلا إلى التفكير . وأنت تأوى إلى مضجعك وقد كنت أزمعت ألا تأوى إليه . ولكن للقوة البدنية حدا . ولكن للتعب سلطاناً هو باسطه وغاية هو بالغها . وقد قضيت مع الثريا ليلة كاملة لم تذق فيها النوم . وهذه الليلة الثانية قد انقضى أكثرها وكادت توالى نجمها تتغور — كما تقول — فلا بد لك إذن من بعض الراحة سواء رضيت أم كرهت .

---

(١) السحر : الرئة .

٢١

وينصرف عمر إلى اللهو والعبث كما ينصرف كل فتى أخفق فى حبه وكان له حظ من الشباب والجمال والثراء والفراغ أيضاً . ولو أن عمر لم يكن شاباً جميلا ثرياً خليقاً أن يفتن النساء وأن يستهوى نفوسهن ، لكان من الجائز أن ينصرف إلى الزهد أو إلى شىء يشبه الزهد من هذه الحياة الجافة الغليظة الخشنة ، ولكن الشباب والجمال والثراء جميعاً قد أعانته من ناحية على اللهو والعبث ، وأعانته من ناحية أخرى هذه السياسة الأموية التى كانت تحظر عليه وعلى أمثاله الاشتراك فى الحياة العامة . وانصرف عمر إلى النساء يعب من جمالهن عبا ، كأن بعد الثريا قد أظمأ نفسه ، وحرق جوفه ، وجفف حلقه . فأقبل عليهن يسقى نفسه الظامئة ، ويطفىء جوفه المحترق ، ويرطب حلقه الجاف . والناس يرون هذا كله فيقولون : فاسق ماجن . وما علموا أن حبه للثريا هو الذى دفعه إلى هذا الشراب الحلو الذى لم يعصر من كرْم ، ولم يعتَّق فى دَن ، ولم يصب فى كأس ، ولكنه يُسكر كأنه الخمر . ومع ذلك

فلم يَسكر عمر من هذا الشراب . لا لأن هذا الشراب غير خليق أن يُسكره ، وإنما لأن أربه فى شراب آخر . وهو إنما يتخذ هذا الشراب تسلية وتسرية وعزاء عن شرابه الآخر. نعم عرف عمر كثيراً من الملاح الغيد اللائى يفتن باللفظ واللحظ ويسعدن بالقرب والوصل ، ويُعذبن بالتيه والصد . عرفهن وتغزل فيهن ولكن وُده لهؤلاء النساء لم يكن إلا وسيلة من وسائل العزاء حين كانت الثريا تثير فى نفسه ما تثير من ألوان السخط والضيق أول الأمر ، ثم حين تزوجت من سهيل آخر الأمر ، ولم يعد له إليها من سبيل . وأنا أعرف أنه قد قال عن نفسه : أنا موكل بالجمال أتبعه . فعرف عنه الناس أنه كان شاعراً عابثاً يجرى وراء أهوائه وشهواته فإلهه الذى يعبده ويخلص له هو نفسه ، يبتغى لها اللذة والنعيم ويدفع عنها الألم والشقاء ما وجد إلى ذلك سبيلا . وهو من أجل ذلك مضطرب القلب ، أو لا قلب له ، يحب اليوم ويسلو إذا كان الغد ، أو يحب الآن ويسلو بعد حين . ولكنى أعرف أيضاً أنه وإن كان عابثاً إلا أنه كان محبا ، وكان حبه هو الذى يدفعه إلى هذا العبث . وكان يلقى من يلقى من النساء وصورة واحدة هى التى تتمثل أمامه وترتسم فى نفسه هى صورة الثريا . وكم ود لو طغت

صورة غيرها عليها فاستراح من حبها هذا الذى يكلفه شططا ويرهقه من أمره عسراً . ولكن هذه الصورة لم تكن تفارقه فى يقظة أو نوم وفى نهار أو ليل . وكانت تلح عليه فى أن يجاهد ما استطاع الجهاد ويحتال ما وسعته الحيلة حتى يلقى الثريا فيسمع منها ويتحدث إليها . أليس مشوقاً إلى أن يعلم علمها بعد أن فارقته ؟ وأليس مشغوفاً بأن يقص عليها ما لقى من أهوال بعد هذا الفراق ؟

ولم تكن حال الثريا خيراً من حال عمر ، فقد تزوجت من سهيل وارتحلت معه ، وكان من وراء ذلك خاطر قد طوت نفسها عليه طياً . وهو أن زواجها من سهيل لن يحول بينها وبين لقاء عمر إن أحبت . فهى تستطيع إن شاءت أن تبتغى الوسائل للقائه . ولو فعلت لأتيح لها هذا اللقاء . ولو فعلت لاستأنفت التحدث إليه والاستماع له ، ولأمتعته من حديثها ونظراتها بما كانت تمتعه من قبل . ولا ستمتعت من حديثه ونظراته بما كانت تستمتع به من قبل أيضاً . وقد جعل هذا الخاطر يتردد فى ضميرها يقظى ، ويتردد فى أحلامها نائمة . وهى تملك أمرها وتضبط نفسها ، وتمسك لسانها فلا تظهر شيئاً ولا تقول شيئاً ولا تخلى بين أحد وبين ما أخفت فى

ضميرها من هذا السر المكتوم . وكانت صورة عمر تتمثل أمامها إذا أصبحت ، وتتمثل أمامها إذا أمست ، وتتمثل أمامها بين ذلك . وكادت هذه الصورة أن تفسد عليها حياتها مع سهيل . وتفسد على سهيل حياته معها . فقد كان سهيل يحبها حباً قوياً ملحاً ، وكان يضايقها بهذا الحب القوى الملح . وهى لم تكن تحبه ولا تطمئن إلى جواره ، فكانت تقابل حبه هذا القوى الملح بشىء من الفتور أو النفور . وكان لا يكاد يقبل عليها حتى تتمثل صورة عمر وتطيل النظر إليها ، ثم تخطف النظر إلى زوجها . وتفصل ما فى عمر من محاسن ، وتوازن بينها وبين ما فى سهيل من مقابح . تفعل ذلك فيما بينها وبين نفسها . وتكاد أن تجهر به إلى زوجها ، لولا أنها تملك نفسها فى مشقة شاقة وعسر عسير . وقد يدنو منها زوجها متلطفاً متظرفاً مترفقاً متملقاً ، يتحبب إليها ويريد أن يخاصرها ، وأن يرافقها إلى غرفتها فتدفعه دفعاً شديداً ، ثم تفلت منه إلى حيث تستخفى وتوصد من ورائها الباب . وقد تلين له وتدين . ولكنها لا تلين ولا تدين إلا متمثلة صورة عمر . تغمض عينيها عن صورة زوجها الذى معها ، لترى صورة ذلك الحبيب البعيد ، وإذا زوجها يظن أنه قد سحرها سحراً واختلب قلبها ولبها اختلاباً

حين ارتقى بها إلى أقصى ما تستطيع أن ترتقى إليه من السعادة والبهجة والنعيم . ولكنه فى حقيقة الأمر لم يسحرها ولم يختلب قلبها ولا لبها ، وإنما الذى سحرها حقا واختلب قلبها ولبها حقا هو ذلك الحبيب الذى تمثلت صورته ، فاستسلمت له واستمتعت به وسعدت معه .

وكذلك كانت حياة الثريا تشبه شبها قويا أو ضعيفاً حياة عمر ، وكانت نفسها تضطرب بمثل ما تضطرب به نفسه من الألم والحزن . وكان قلبها يجد ما كان يجد قلبه من اللوعة والأسى . وكان أحب شيء إليها أن تقبل عليه فى مكة فتدنو منه وتفضى إليه بذات نفسها . كما كان أحب شيء إليه أن يقبل عليها فى مصر أو الشام فيدنو منها ويفضى إليها بذات نفسه . وكان كل منهما ينتظر الفرصة السانحة ليقبل على صاحبه . وتسنح الفرصة للثريا فتنتهزها ، وكانت هذه الفرصة هى موسم الحج .

٢٢

قالت ثريا لأتراب لها قُطُف

قُمْنَ نحيِّ أبا الخطاب من كَثَبِ

فطِرْنَ حدًّا لما قالت وشايعها

مثل التماثيل قد مُوِّهن بالذهب

يرفلن فى مطرفات السوس آونة

وفى العتيق من الديباج والقصب

ترى عليهن حلى الدر متسقاً

مع الزبرجد والياقوت كالشهب

قالت لهن فتاة كنتُ أحسبها

غريرة برجيع القول واللعب

هذا مقام شُنُوع لا خفاء به

ألا تخفن من الأعداء والرقب

وكان من الحق أن يحذرن وأن يخفن ، فقد كن فى المسجد الحرام فى ذلك الحين ، وكان موسم الحج قد أقبل ، وأقبلت معه الطوائف المختلفة من الناس ، فملئوا مكة وملئوا المسجد الحرام

وكانت الثريا قد استأذنت من زوجها سهيل ، وخرجت تريد أن تحج فى ظاهر الأمر ، وتريد أن تلقى عمر فى حقيقة الأمر ، وقد أذن لها سهيل فى الخروج إلى مكة ، لأنه لا يستطيع أن يخالف لها عن أمر أو يخرج لها عن رأى . فقد كان يحبها حبًّا شديداً ، ويثق بها ثقة لاحد لها ، ويعتمد عليها فى كل شىء الاعتماد كله . يصدقها إذا قالت ، ويؤيدها إذا فعلت ، حتى إنه ليصدقها وهو يعلم أنها كاذبة ، وحتى إنه ليذعن لها وهو يعلم أنها ظالمة . ذلك لأنه يحبها إلى حيث تنمحى إرادته أمام إرادتها . فلما أعلنت إليه أنها تريد الحج لم يفكر فى أنها ذاهبة إلى مكة حيث يقيم عمر بن أبى ربيعة صديقها القديم . ولم يفكر فى أنها قد تلقاه وتخلو إليه وتعيد معه أيامها الحلوة اللذيذة . لم يفكر فى شىء من هذا أو فكر فيه ولكنه لم يأبه له ولم يحفل به ، لأنه لا يعدو أن يكون ظنا سيئاً ، وما ينبغى أن يسىء الظن بزوجته التى يحبها والتى لا ينبغى أن تساء بها الظنون . وقد أقبلت الثريا على مكة ، وكان أول شىء فكرت فيه هو لقاء عمر . وقد بعثت إليه من يأتى لها به دون أن يخبره بمجيئها . ويقبل عمر فلا يكاد يراها حتى يقول لها: حبيبتى ثريا . فتقول له : حبيبى عمر . ثم تلقى بنفسها بين

ذراعيه ، ثم يكون من كل منهما لصاحبه قبل طويلة حلوة حارة ، تؤدى كثيراً من المعانى ، ولسان كل منهما معقود ، وقلب كل منهما واجف . ثم يتاح لكل لسان من هذين اللسانين المعقودين أن ينطلق ، ولكل قلب من هذين القلبين الواجفين أن يطمئن . وإذا الثريا تعلن إلى عمر أنها ما زالت تحبه رغم زواجها من سهيل ، وأنها عاجزة عن مقاومة هذا الحب ، وأنها تتجلد وتجاهد ولكنها لا تظفر من هذا الجهاد بطائل . وأنها قد اقتنعت آخر الأمر بأنها لا تستطيع أن تنسى هذا الحب ولا أن تبرأ منه ، وأنها لا تستطيع أن تحتمل بعدها عن عمر ، فهى منذ اليوم ستتردد عليه فى مكة بين الحين والحين ؛ تقبل فى المواسم لأداء الحج ، وتقبل فى غير المواسم لأداءالعمرة . وهو يسألها : أليس من الحق أنك تحبين زوجك ؟ وهى تجيبه فى صراحة وعنف . كلا . لا أحبه ولم أحبه ولن أحبه . وما أحببت وما أحب ولن أحب غيرك . انتهى بها الحب إلى الجنون فهى لا تخفى من أمرها شيئاً . وعمر يضمها إليه ، فتبكى ما شاء لها البكاء ، وإذا دموعها تطلق دموعه فلا يستطيع أن يحبسها فتنهمر من عينيه انهماراً . وما أدرى أطال بكاؤهما أم قصر ؟ ولكنى أعلم أنهما قد تحدثا بعد ذلك

فنوناً من الأحاديث مختلفة ، وأنفقا معاً وقتاً سعيداً طالما حلما به وتمنياه ، ثم تودعه على أن يلقاها كل يوم ما دامت فى الحجاز . فلما كان هذا اليوم وكانت جالسة فى المسجد الحرام مع لداتها وأترابها ، نظرت فرأت عمر ، فقالت لهن : قمن نحى أبا الخطاب عن كثب. فقمن نشيطات له مسرعات إليه ، لم يبالين هذه الطوائف المختلفة التى تملأ المسجد ، والتى لا يمنع أن يكون بينها من يعرفهن فيسعى بهن إلى أهلهن أو أزواجهن فحذرتهن هذه الفتاة من هذا الأمر الذى يوشك أن يجر عليهن شرا عظيما . ولكنهن لم يسمعن لها ولم يفهمن عنها ؛ لأنهن كن مشغولات بعمر عن كل شىء . وقد أقبلن على عمر فحيينه وحياهن ، وسمعن منه وقلن له ، ثم انصرفن عنه بعد ذلك مسرورات محبورات .

ولم يكد ينته الموسم وتنصرف الثريا عن مكة حتى عادت إليها وكثر اختلافها إلى مكة منذ هذا الموسم كثرة لفتت إليها الأنظار حتى اضطر أحد أصدقاء سهيل إلى أن يحدثه فى ذلك . ولكن سهيلا يعلن إليه : أنه سعيد مغتبط واثق . ويحاول هذا الصديق أن يفتح عين سهيل وأن يدله على ماضى الثريا مع عمر ، وأن يلفته إلى حاضرها معه . فيجيب سهيل : بأنه لا يحفل

بذلك ولا يلتفت إليه ، لأنه يثق فى زوجه ويطمئن إليها ، حتى إنه لو رآها بين ذراعى عمر ما صدق أنها آثمة . ويتركه هذا الصديق حين يرى أنه لن يصل منه إلى شيء ولن يظفر منه بشيء . ولكن الثريا جعلت تطيل إقامتها فى مكة حين تقبل عليها ، وأخذ الكلام يكثر عنها وعن عمر بن أبى ربيعة ، فأخذ سهيل يرتاب ، ويشك فى أمانة الثريا ، وفى أن الصلة بينها وبين ابن أبى ربيعة ما زالت قائمة . فإذا عادت إليه أفضى إليها بهذا الشك فمحته فى الحال بلطفها وظرفها ورقتها وحسن حيلتها ، فيعود سهيل إلى الثقة والاطمئنان . ثم لا تلبث أن تعلن إليه أنها ذاهبة إلى مكة فيعود الشك إلى نفسه ، فيشكو إليها ، فتعطف عليه وترضاه . ولكنها تذهب إلى مكة وتطيل فيها المقام ، فإذا عادت إليه شكى إليها وبكى فتعطف عليه وترضاه ، حتى أصبح من أخلاقه أن يشك ويشكو ومن أخلاقها أن تعطف وترضى . ولكن الحق الواقع أن الثريا كانت تذهب إلى مكة للقاء عمر ، وأن الصلة بينها وبينه ظلت قائمة بعد أن تزوجت من سهيل . وكان سهيل يعلم ذلك ويتأذى به فى ذات نفسه إيذاء لا حد له . وكان من أجل ذلك يريد أن يقطع ما بينه وبينها من صلة . ومن يدرى ؟ فلعله فكر

فى مراقبتها حين تذهب إلى مكة . ولعله راقبها فتبين له اتصالها بعمر ، ولكنه لم يتحدث إليها هذه المرة بشيء فقد كرهها ، أو خيل إليه أنه كرهها ، فهو لا يريد أن تترضاه أو تعطف عليه ، وإنما يريد أن يخلص منها إلى حيث يستريح من الحب وآلامه وأثقاله . ولكنه لم يكن يفكر فى تركها والسلو عنها حتى يشعر بالعجز عن هذا كله . ومن يدرى أيضاً ؟ فلعله فكر فى شيء آخر ، فكر فى أن يأخذها مع عمر حين تتصل به وتخلو إليه . ولكنه خشى عليها من الفضيحة ، وهو يحبها مهما يقل ومهما يفعل ، فهو لا يستطيع أن يلجأ لهذا مهما كان الأمر . فإذا أقبلت عليه أنبأها بأنه قد استيقن اتصالها بعمر حين ذهبت إلى مكة . وتسرع هى فى أن تتلطف له وتأخذه باللين والرفق منكرة بطبيعة الحال ما يتهمها به . متهمة إياه بالغيرة والإسراف فى الغيرة ، فتكاد تخدعه وتكاد ترضيه ، وتميل عليه فتقبله ، فتوشك إرادته أن تنمحى . ولكنه واثق بما بلغه عنها ، فهو لا يصدقها . وهو يريد أن يعفو ، ولا يطلب منها ثمناً لهذا العفو إلا شيئاً واحداً وهو أن تنبئه بأنها قد اتصلت بعمر حين ذهبت إلى مكة . فتأبى لأنها لا تريد أن تعترف فتسيء إلى صاحبها . فإذا عرفت أن زوجها قد رأى أن ليس

إلى الشك فى ذلك من سبيل تغير فى نفسها كل شىء ، فعدلت عن الخداع والمكر إلى الصراحة والاعتراف . ولكنها لا تلوم نفسها ولا ترى أنها قد فعلت شيئاً ينكره الخلق أو الدين . فهى تحب صاحبها وإن ما نع زوجها فى هذا الحب . وأين السبيل إلى ممانعة الحب وهو لا يملك من أمره شيئاً ؟ وهل تعرف هى كيف أحبت صاحبها ؟ رأته فأحبته دون أن تعرف كيف أحبته ؟ ولا لماذا أحبته ؟ ولعلها لم ترد أن تحبه ، وإنما أحبته دون إرادة . وهل الناس يحبون لأنهم يريدون أن يحبوا ؟ ولا يكاد سهيل يسمع هذا حتى يأخذه ذهول يشبه الجنون . وإذا هو يحب أن يسمع من امرأته أنها تحبه ، لأنه يحبها . وإذن فاعتراف امرأته له بأنها قد اتصلت بعمر لم يغظه ولم يغضبه وإذن فهو ليس ذلك الزوج الذى يريد أن ينتقم لشرفه ، وإنما هو المحب الذى يريد أن يجد لحبه صدى فى نفس حبيبته ، بل الذى يريد أن يكتم على حبيبته سوء السمعة . هو عاشق لا زوج ، فلا يريد أن ينتقم ، وإنما يريد أن يجهل كل شىء عن أمر عشيقته مع صاحبها . وهو يريد أن يعيش معها ، ولكنه يضرع إليها ألا تلقى ابن أبى ربيعة بعد ذلك . وهى تعلن إليه أنها ستحاول إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

٢٣

ولم تجد الثريا سبيلا إلى الامتناع عن لقاء عمر ، وهى تحبه هذا الحب القوى العنيف الذى لا تعرف له حدًّا ولا أمدا ، فكانت تتردد عليه فى مكة ، وتنفق معه الأيام الطوال ، غير عابئة بما قد يثيره هذا فى نفس زوجها من ألم وحزن ومن بؤس وشقاء . وليس من شك فى أن سهيلا على سذاجته وطيب قلبه لم يستطع أن يحتمل هذا كله ، فأضنته العلة وذهبت بحياته فيما يحدثنا بعض الرواة . أو لم يستطع أن يحتمل هذا كله فطلقها وتخفف من عبء باهظ وثقل ثقيل فيما يحدثنا البعض الآخر . والشيء الذى لا شك فيه هو أن سهيلا قد استراح بالموت أو بالطلاق من هذه الحياة التى يحياها مع الثريا ، والتى كانت أشبه شيء بالجحيم الذى لا يطاق . وفى الوقت نفسه قد استراحت الثريا من حياتها البغيضة الثقيلة معه ، فعادت إلى مكة وأقامت إلى جوار صاحبها الذى تصفيه الحب وتمنحه الود وتصدقه الوفاء .

وتعود الثريا إلى أيامها الحلوة مع عمر وقد خلصت نفسها

للحب ، وصفى ضميرها للهو وحسن استعدادها للمجون ، أو قل لاستيفاء حظها من المجون . وإذا هي تخلو إليه كما كانت تخلو إليه من قبل فتطلق لسانها بما تشاء فى غير تكلف ولا تحرج ، وترسل نفسها على سجيتها فى غير احتياط ولا تحفظ . وتخلع عن نفسها هذه الخصال المصطنعة التى فرضتها الحضارة ، وتأخذ معه بحظها من البهجة والنعيم . فإذا انصرفت عنه فإلى رفيقات اللهو وخليلات العبث تسمر مع من بقى منهن فى مكة ، وتنتظر موسم الحج لتلقى من تزوجت منهن وارتحلت مع زوجها عن مكة ولا سيما عائشة بنت طلحة .

وكانت عائشة بنت طلحة هذه سيدة رائعة الجمال بارعة الفتنة ، وكانت رفيعة المكانة عظيمة المنزلة عريضة الثراء . وكانت قد عودت نفسها البر بأهل مكة والتوسعة عليهم كلما أقبلت على مكة للحج أو العمرة ، لا تعرف أن أحداً منهم قد مسه الضر واشتدت عليه الحال إلا أعانته وأغاثته وأنجدته ، تكتم ذلك ما وسعها الكتمان ، كأنما كانت تستحى من أن يعرف الناس عنها برها وكرمها . ولكن الناس كانوا يعلمون منها ذلك ويتسامعون به . وكان صنائعها يرون من شكر الصنيعة ومعرفة الجميل أن يذيعوا إحسانها إليهم

وأياديها فيهم . وكانت عائشة على ذلك لا تكتفى بهذا البر المكتوم تبذله لأهل مكة كلما احتاجوا إليه ، وإنما كانت تدعوهم إلى حفلات عامة فى أيام كانوا يرونها أعياداً ، فتقدم لهم الطعام والشراب ، وتقدم لهم الخلع والألطاف . وكانوا يستجيبون لدعوتها ولا يتخلفون عنها سواء فى ذلك الميسور والمقتر عليه فى الرزق ، يرون ذلك نعمة منها عليهم وحقا لها فى أعناقهم وكانت النساء المترفات يقبلن عليها كلما أقبلت على مكة . فيأخذن بحظهن من الطعام والشراب ، ثم يفرغن للأحاديث والأسمار فيقضون فيها شطراً غير قليل من الليل ، ثم يتفرقن موفورات محبورات ، تخفق قلوبهن بالحب لها ، وتنطلق ألسنتهن بالثناء عليها .

وتقبل عائشة على مكة ذات موسم فترى مكة قائمة قاعدة تشارك الحجاز كله فى قيامه وقعوده ، لأنها كانت تنتظر كما كان الحجاز كله ينتظر إقبال عائشة . وما هى إلا أن تنطلق مواكبها الرائعة فتمتلئ بها أرجاء مكة ، وتفرغ لها الدور والمتاجر ، ويهرع لها الناس كلهم شيوخهم وكهولهم وشبانهم وصبيانهم إلى الشوارع الواسعة والميادين العامة التى تسير فيها هذه المواكب . وإذا هم جميعاً لا يتحدثون إلا عن عائشة

ومواكب عائشة وجوارى عائشة . وإذا هم جميعاً مبتهجون ، تملأ قلوبهم الغبطة ويغمر نفوسهم الفرح ويشيع فى ضمائرهم السرور . وما تكاد عائشة تستقر فى مكة حتى تقبل عليها الثريا وأخواتها ونساء من مترفات قريش وأهل الدعة فيها ، فتلقاهن عائشة كما تعودت أن تلقاهن بوجه مشرق وثغر باسم وتحية حلوة يحملها إليهن صوت عذب . ويجلسن إليها فيتبادلن من الأحاديث ما يشأن ، ولا يبخلن على أنفسهن بالمزاح والضحك والإسراف فيهما . فإذا أخذن بحظهن من المزاح والضحك والحديث انصرفن وقد حملتْ كل واحدة منهن ما أمرت لها به عائشة من خلع وألطاف . ولكن من هذا الفتى الوسيم القسيم القائم بالباب ؟ إنه الغريض المغنى ، كان قد أقبل مع مولياته الثريا وأخواتها ، ودخلن هُنَّ وانتظر هو بالباب . حتى إذا خرجت كل واحدة منهن مع جواريها الخلع والألطاف ، قال لهن : فأين نصيبي من عائشة ؟ فقلن له : أغفلنا لك وذهبت عن قلوبنا . فقال : ما أنا ببارح من بابها أو آخذ بحظى منها ، فإنها كريمة بنت كرام . واندفع يغنى بشعر جميل : —

تذكرتُ ليلى فالفؤاد عميدُ

وشطتْ نواها فالمزار بعيدُ

فسمعت عائشة صوته فقالت : ويلكم . هذا مولى العبلات بالباب يذكر بنفسه . هاتوه . فلما دخل عليها ورأته ضحكت وقالت له : لم أعلم بمكانك . ثم دعت له بأشياء أمرت له بها . ثم قالت له : إن أنت غنيتنى صوتاً فى نفسى فلك كذا وكذا (شىء سمته له) فغناها فى شعر كثير :

وما زلت من ليلى لدن طر شاربى
إلى اليوم أخفى حبها وأداجن
وأحمل فى ليلى لقوم ضغينة
وتحمل فى ليلى علىَّ الضغائنُ

فقالت له : ما عدوتَ ما فى نفسى ، ووصلته فأجزلت .

وهكذا أنفقت الثريا أيام الموسم بين لداتها وأترابها من ناحية ، وبين صاحبها عمر من ناحية أخرى . ومن يدرى ؟ فلعل عمر قال فيها فى هذا الموسم هذه القصيدة التى تصور بعض ما كانا يأخذان فيه من أسباب اللهو والمجون والتى أولها :

لم تر العين للثريا شبيهاً بمسيل التلاع يوم التقينا

٢٤

والأيام تمضى فتذهب بشباب عمر وجماله ، وبنضرته ورونقه . وإذا هو شيخ نحيف ضعيف ، نحيل هزيل ، عليه من مظاهر الشيخوخة هذا الشعر الذى وخطه الشيب . وهذه التجاعيد التى تظهر فى جبهته وتمتد حول أنفه من يمين وشمال وهذان الجفنان اللذان لا ينفرجان إلا فى شىء من الجهد . وهاتان الشفتان اللتان لا تنطبقان إلا فى شىء من العناء . وهذا التهدل والترهل فى وجهه وجسمه ، فإذا تحرك فعن قوة فاترة خائرة وعن جسم متهالك قد أخذ يشيع فيه الفناء . وإذا تحدث فعن صوت بعيد محطم ، كأنه ذلك الصوت الذى تحدثه إذا مسستَ إناء من الفخار قد أصابه شق يسير . وإذا جلستَ إليه سمعتَ تنفسه سريعاً يتبع بعضه بعضا كأنه تنفس المكدود المجهود. فليس غريباً أن يفكر عمر بعد هذا كله فى العبادة والنسك . ومن يدرى ؟ فلعله فكر فى الموت وما بعد الموت من حياة . وأى شىء كان أيسر من التفكير فى الموت وما بعده بالقياس إلى هذا الشيخ الذى كان يدنو من الموت أو يدنو منه الموت ؟

والذى كان يعيش فى مكة فى القرن الأول للهجرة ، ويعرف الموت وما بعد الموت من هذه الحياة الخالدة التى تمايز فيها النفوس والقلوب والضمائر بما تلقى من جزاء أعمالها . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

لقد مسه جناح من رحمة الله فأراد الفراغ له ، والخروج لطاعته عن حياته العابثة وأيامه اللاهية . وقد حاول أخوه الحارث قبل ذلك أن ينتزعه من لهوه ويخرجه عما هو فيه من عبث ومجون ولكنه لم يستطع . فلكل شىء وقته وإبانه . ومن المحال أن تهدى نفساً لم تنضج بعد لحياة العبادة . ورحمة الله لا تمس إلا من يريد الله أن يهديه سبيل الخير . وقد نضجت نفس عمر ، وأراد الله له بعد هذه الحياة التى يملؤها اللهو ويشيع فيها الفساد أن يكون عبداً صالحاً ، فاستنقذه من نفسه ، واستخلصه له من آثام الحياة وسيئاتها .

ويقبل عليه أصحابه ذات ليلة . فينكرون إعراضه عنهم ، وما ظهر من انقباض وجهه وتقطب جبينه ، وما أحسوا وراء ذلك من فتور النفس وجمود القلب وشرود الخواطر واشتغال البال . وهم لم يتعودوا منه إلا النشاط للهو إذا نشطوا له ، والإقبال على العبث إذا أقبلوا عليه ، والمشاركة فى اللذة إذا أخذوا فيها .

وقد كانوا يقبلون عليه مصبحين وممسين ، ويقبلون عليه فى أى ساعة من ساعات النهار أو الليل ، فلا يرون منه إلا نشاطاً وانبساطاً ، وإلا إقبالا عليهم وإيناساً لهم . يقبل معهم على اللذات إقبال المخلص فى حب اللهو ، المسرف فى إيثار اللذة ، المتهالك على أن يأخذ من العبث بحظ موفور . فلما أقبلوا عليه من ليلتهم تلك لم ينشط لما نشطوا له ، ولم يلقهم بما تعود أن يلقاهم به من البشر وطلاقة الوجه وابتسام الثغر وانبساط الجبين . وإنما استقبلهم فى شىء من الإعراض لم يروه حتى أنكروه فى أنفسهم ، ثم أحسوا وراء هذا الإعراض ما أحسوا من الفتور والجمود والشرود ، فلم يظهروا له مما أحسوا شيئاً . وطلبوا إليه أن يدعو لهم بعض إمائه يغنين ويرقصن كما يفعلن دائماً كلما أقبلوا عليه . ولكنه ازور عنهم بعض الشىء ، فألحوا فى الطلب فألح فى الإباء . هنالك جلسوا يتندرون ويتفكهون ، مستبقين إلى الضحك مسرفين فى المزاح متهالكين على الدعابة . وكانوا يلمحون له بدعابتهم ، ويلحون عليه بمزاحهم ، ويحرضونه على مشاركتهم فلا يجدون منه إصغاء إليهم ولا انتباها لهم . ولو أتيح لهم أن يصلوا إلى أعماق قلبه وأغوار نفسه لعرفوا أى لوعة كانت تحرق قلبه تحريقاً ، وأى حسرة كانت تفرق نفسه تفريقاً ،

وأى ندم لاذع كان لايفارقه يقظان ولا نائماً، ولرحموا أنفسهم مما يرحمهم منه ، ولعدلوا بأنفسهم عن هذه الطريق التى عدل بنفسه عنها ، ولعلموا أن الحياة باطل كلها ، ولخلوا إلى أنفسهم فاستغفروا ربهم وأنابوا إليه . فلعلهم أن يزيلوا عن أنفسهم بعض ما علق بها من إثم ، ويغسلوا عن قلوبهم بعض ما لصق بها من وضر . ولكنهم لم يتح لهم أن يتبينوا دخيلة نفسه وسريرة قلبه ، فمضوا فى لهوهم وعبثهم ومزاحهم وضحكهم متكلفين أن يلقوا إعراضاً بإعراض وجفاء بجفاء . ولكنهم لم يلبثوا أن أحسوا كأن شيئاً ينقصهم ، وكأن اللهو لا يستقيم لهم . وكأن نفوسهم لا تستجيب لهذه اللذات التى تدعوها فتلح فى الدعاء . ولا يشكون فى أن انقباض عمر عما ينبسطون له هو مصدر ما يجدون من حرج وضيق ، ومبعث هذا الفتور الذى أخذ يسعى إليهم شيئاً فشيئاً ، فيلهيهم عما أخذوا فيه من عبث ومزاح ، ويكاد يصرفهم عن لذتهم صرفاً . هنالك يقبلون على عمر لائمين أول الأمر ، ثم ملحين فى اللوم ، فإذا لم يجدوا منه عناية بهم أو استماعاً لهم رقوا له ورفقوا به ، وتحولوا إليه عن دعابتهم وفكاهتهم ، وجعلوا يسألونه عما عرض له من أمر . وما نزل به من خطب ، وما ألم به من مكروه . ويبلغ رفقهم

هذا الحلو قلب عمر فيتأثر به ويلين له ، وإذا هو يعتذر إليهم عما لقيهم به من فتور ، وقد عوَّدهم أن يكون لهم مكرماً وبهم حفيا ، ثم يعلن إليهم أنه لم يقدم على ذلك راغباً فيه ، وإنما دفع إليه مكرهاً عليه . هنالك يعلنون إليه : أنهم لا يشكون فى أنه لم يلقهم بهذا الإعراض إلا وقد عرض له من الأمر ما اضطره إلى ذلك . ثم يطلبون إليه أن يفضى إليهم بدخيلة نفسه وجلية أمره كما عودوه أن يفضوا إليه بأسرارهم وجلية أمرهم . فلعلهم أن يكونوا عندما يحب من المعونة له والترفيه عليه . فيسكت عمر سكتة قصيرة ثم يقول لهم : ما أحب لكم ولا لنفسى أيها الأصدقاء أن ننصرف إلى اللهو والعبث هذا الانصراف . أفليس خيراً من هذا اللهو وهذا العبث أن ننصرف إلى العبادة والنسك ؟

ولم يكد أصحاب عمر يسمعون منه هذه الجملة حتى اندفعوا إلى ضحك غليظ متصل . ثم سكت عنهم الضحك بعد حين ، فجعل بعضهم ينظر إلى بعض نظر المنكر لما سمع ، الساخر منه ، فى شىء غريب من الفرح والمرح . ولكن واحداً منهم ينظر إلى عمر نظرة لا تخلو من استهزاء يشوبه الإشفاق ، ويقول له : لقد كنا نحسب أن التفكير فى العبادة والنسك

والحديث عنهما أمر مقصور على أخيك الحارث . ولكن الأمر قد تجاوزه إليك . أو مستك العدوى منه ؟ قال عمر : فإنى لم تمسنى العدوى من أحد ، وإنما مسنى جناح من رحمة الله . قالوا : فإنا لم تمسنا هذه الرحمة بعد ، وما ينبغى أن تمسنا فى يوم من الأيام مهما تتقدم بنا السن . ومع ذلك فإنا لم نأت إليك لتتحدث إلينا عن رحمة الله التى يصيب بها من يشاء من عباده ، وإنما أتينا إليك لنأخذ معك فى اللذة واللهو . قال عمر : فإن نفسى لراغبة عنهما منذ اليوم . وتفرق هؤلاء الأصدقاء عن عمر ، وإن بعضهم ليقول لبعض . يا عجباً للفاسق . يريد أن يستنقذنا من الشر ويهدينا إلى الخير ، ثم يندفعون فى ضحك متصل عريض .

٢٥

وتمضى الأيام على الثريا فتنال منها كما نالت من عمر . ولكنها على ذلك تحتفظ بكثير من شبابها وجمالها . ثم يموت عمر فتجزع عليه الثريا أشد الجزع وتهلع عليه أكبر الهلع ، وتبكى عليه نساء مكة كلهن ، وتقول إحداهن وهى تندبه : فمن لأباطح مكة بعد ابن أبى ربيعة يمدح نساءها ويتغنى جمالهن ؟ ومنذ ذلك اليوم جعل الذواء يسرى فى شباب الثريا ، وأخذ الذبول يسعى إلى جمالها . ولم تلق الحياة بعد ذلك إلا بوجه محزون كئيب يصور قلباً مكلوماً مظلماً . وتحرص الثريا منذ اليوم على أن تلم بهذه الأماكن التى كانت تشهدها مع عمر فتتمثل ما كانا يأخذان فيه من لهو ومتاع . وتتحدث بهذا كله إلى صديقاتها أحاديث يغشاها الحزن وتتردد فيها الذكريات المؤثرة ، وهى بهذه الأحاديث إنما تتمم هذا المعبد الحزين الذى أقامته فى نفسها لهذه الحياة المنقضية ، ولهذه العهود الماضية ، ولهذه الذكريات التى ستدوم ما دامت لها الحياة .

ثم تخرج ذات يوم إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان

وهو خليفة بدمشق فى دين عليها . فبينا هى عند أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إذ دخل عليها الوليد ، فقال : من هذه ؟ قالت : الثريا . جاءتنى أطلب إليك قضاء دين عليها وحوائج لها . فأقبل عليها الوليد فقال : أتروين من شعر عمر ابن أبى ربيعة شيئاً ؟ قالت : نعم . أما إنه يرحمه الله كان عفيفاً ، عفيف الشعر وتروى له هذه الأبيات التى يقول فيها :

وحساناً جـواريا خفرات حافظات عند الهوى الأحسابا
لا يُكَثِّرْنَ فى الحديث ولا يتـ ـبَعْن يَنْعقن بالبهام الظرابا

فيقضى حوائجها وتنصرف بما أرادت منه . فإذا خلا الوليد بأم البنين قال لها : لله در الثريا . أتدرين ما أرادت بإنشادها ما أنشدتنى من شعر عمر؟ قالت : لا . قال : فإنى لما عرَّضت لها به ، عرَّضت لى بأن أمى أعرابية . وأم الوليد هى وَلاَّدة بنتُ العباس بن جزىّ بن الحارث بن زهير بن جَذيمة العبسى .

ثم تموت الثريا فيذهب الغريض إلى كَثير بن كَثير السهمى فيقول له : قل أبيات شعر أنح بها على الثريا هذه التى ربتنى وعلمتنى النوح بالمراثى على من قتله يزيد بن معاوية من أهلها يوم الحرّة . فيقول :

ألا يا عين ما لك تدمعينا   أمن رمد بكيت فتُكحلينا
أمَ انْتِ حزينة تبكين شجوا   فشجوك مثله أبكى العيونا

ويذهب الغريض إلى مأتمها فتُضرب الستائر بينه وبين النساء وينوح وتنوح من حوله النساء .

قال مسلمة بن إبراهيم : قلتُ لأيوب بن مسلمة : أكانت الثريا كما يصف عمر بن أبى ربيعة ؟ فقال : وفوق الصفة . كانت والله كما قال عبد الله بن قيس الرقيات !

حبذا الحج والثريا ومن بالخَـ   ـيْف من أجلها ومُلْقَى الرحال
يا سليمان إن تلاق الثريا   تلق عيش الخلود قبل الهلال
درةٌ من عقائل البحر بكرٌ   لم تنلها مثاقب اللآل
تعقد المئزر السخام من الخزّ   على حَقْوٍ بادنٍ مكسالِ

٢٦

قلت لمحدثى — وكان عاشقاً لفتاة اسمها ثريا — والله ما أدرى أكنت تتحدث عن ثريا ابن أبى ربيعة حقا أم كنت تتحدث عن ثرياك أنت .

قال محدثى : وهل تظن أنى كنت أتحدث عن تلك الثريا لولا ثرياى العزيزة ؟

قلت له : فنحن إذن مدينون لثرياك بظهور هذه القصة ، قصة الثريا .

قال لى : وهل أكتب ما أكتب أو أتحدث ما أتحدث إلا وأنا أتمثل ثرياى العزيزة ؟

يولية سنة ١٩٥٤ م — كمال بسيونى

مجموعة «أولادنا»

قصص شائقة ساحرة

للناشئة بين الثانية عشرة والسادسة عشرة من أعمارهم

ظهر منها حديثاً :

أوليفر تويست

القصة العالمية المشهورة ، قصة الطفولة المشردة التى تقسو عليها الأقدار ثم ترأف بها فسخر لها القلوب الرحيمة لتنتشلها من مخالب الشر وحمأة الرذيلة .

دافيد كوبرفيلد

القصة التى تعتبر أروع قصص ديكنس ، ففيها تصوير لشخصيات أصبحت خالدة على الزمن بميزاتها وأخلاقها ، وفيها كذلك صراع بين الخير والشر حتى ينتصر الخير

فى مهب الريح

قصة الشباب الغنى المترف يفقد فجأة غناه وثراءه فيهوى إلى حضيض الفاقة والفقر ولكنه يعتمد على نفسه فيعمل ويكافح فى الحياة ويمتهن أشق الصناعات والمهن فيبنى نفسه من جديد وينعم بنجاحه .

ثمن كل قصة ١٥ قرشاً

دار المعارف بمصر

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة